قـــدر ومكتـــوب

قصـــص

محمد خيرت حماد

فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سلسلة أدب الجماهير
خيرت ، حماد
مقدر ومكتوب / قصص
محمد خيرت حماد
الطبعة الأولى / المنصورة
دار الإسلام للطباعة والنشر ، ٢٠٠٧
٨١ ص ، ١٩ سم
ترقيم دولى : 9-267-374-977
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٣٧٨١
١ـ القصص العربية القصيرة
أ ـ العنوان

٨١٣,٠١

إهداء ..

إليــــك أينمــــا كنــــت .. لا تصنعـــي
مـــن الظـــــروف قيـــداً .. فالحياة لا تحتمل
قيـــــداً جديــــــداً .. وانفضي عن كاهلك
ما يعوق طريقك إلى غدٍ باسم مشرق بالأمل ،
فالحياة أجمل عندما يوجد الأمل ، وانظري
أمامك دائما ، ففي نهاية كل نفق مظلم ..
شمعة على الأقل ، تهدي إلى طريق الخلاص.

محمد خيرت

قدر ومكتوب

(١)

الجو .. حار .. خانق

الموكب طويل .. مزدحم .. يتحامل فى سيره على رجلين يتأبطان ذراعيه . لا يدرى على وجه اليقين كيف يسير ؟

كيف يصلب طوله بينهما ؟ أو حتى كيف يتنفس الهواء!!

جفت الدموع فى مقلتيه .. تجمدت أحاسيسه تماما .. لا يعرف على وجه الدقة ما هي أحاسيسه من شدة مابه من أسى .

ابنته الصغرى .. عفاف .. القطعة الكبرى من قلبه .. نبع الحنان الذي أغدقت به عليه .. يسير فى جنازتها .ومن الذى تسبب فى موتها ؟ .. هو .. أبوها .. الشيخ الأزهري .. الحاصل على العالمية ؟! هو الذى قتلها .

نعم .. أنا الذى قتلتها .. بصمتي .. بعجزى على أن أقول لا .. لن تتزوجى من أخيك !!

وهل كان باستطاعتي أن أقولها ؟! هل كان بمقدورى أن أعترف بذنبي بعد خمس وعشرين سنة .. سترني الله

خلالها !! وهل كان بمقدور أي إنسان غيرى .. لو كان مكاني .. أن يفعلها ويقول لا ؟! يالها من كلمة سهلة على اللسان ثقيلة المعني .. لا واحدة كانت كافية لانهاء ما أنا فيه لكن لم يكن بمقدورى أن أقولها . لأنها كانت ستفتح أبواب الجحيم علىَّ !! لماذا ؟! وما السبب ؟! وغيرها من الأسئلة وساعتها لم أكن لأقدر على الإجابة على أى سؤال منها .

لم يكن بقادر على رفع عينيه عن الأرض .. وكيف يرفعها بعد ما فعل ؟! .. كيف يرفع رأسه وقد حكم على نفسه بأن يحنيها للريح لكي تمر ؟! ولم تمر الريح إلا وقد اقتلعت منه قلبه .

(٢)

منذ تزوج جارهم الحاج شعبان من ست الدار .. وحياته - فى جحيم قبل أن يتحابا .. وبعد أن تحابا .

فقد كان يعرفها قبل أن تتزوج .. وكم تمناها زوجة له . لكن جمالها كان يباعد بينها وبينه .. فقد كان لا يقدر على مهرها الذى قدره أهلها البسطاء . كما أنه كان فى مرحلة التعليم الثانوي الأزهرى . ولم يخطر على باله أن يطلب من أهله الزواج وهو مازال أمامه الكثير فقد كانت أحلامه كبيرة فى نيل الشهادة " العالمية " كما كان يسميها أبناء جيله . حقا .. الدار بالدار مع زوجها . لكن عريسها ورث عن أبيه عشرة أفدنة وداراً كبيرة ومالاً وفيراً

وخمس رؤوس ماشية وحده . لأن أباه لم ينجب سواه . وهو الثاني بين خمسة أخوة صبيان وثلاث بنات .

وحده الذى رغب فى التعليم وسار فى دربه .

عندما عرف برغبة الحاج شعبان بالزواج منها .. قنع فى داخله بالإحساس بوجودها بالقرب منه .. احتراماً للجيرة .. ورضى بذلك نفسا .. إلا أنه ما أن رآها على سطح دارها أول مرة . والسطحان متجاوران .. لا يفصل بينهما فاصل .. حيث كان يعيش بمفرده فى حجرة مقامة على سطح بيتهم .. ليتمكن من المذاكرة وحده دون ازعاج . ما إن رآها فى أيامها الأولى وهي ترتدي ثوباً خفيفا .. وقد تركت شعرها الأسود الفاحم ينساب على جانبى وجهها القمرى .. حتى تمرد بداخله ما كان ساكنا .. وثار المارد فى القمقم . وألهبت نار الرغبة الجامحة رأسه .

وبمرور الأيام .. وكثرة تواجدها على السطح .. الموجود به بشكل دائم وخاصة أمام حجرته للمذاكرة فى نصف النهار بعد توقف الدراسة بالمعهد تأهبا للامتحانات بدأ كل منهما فى التعود على وجود الآخر . وشيئا فشيئا أخذا يتبادلان النظرات والسلامات والتحيات .

ومضى على ذلك ما يقرب من العام . كان خلاله قد حصل على الثانوية والتحق بالجامعة الأزهرية بالقاهرة . وعندما أعد نفسه للسفر .. منى نفسه بأن يحادثها .. يودعها..تعمد مراقبتها حتى وجدها عصر يوم بالقرب من سطحهم، واقترب منها محاذرا أن يراه أحد من الجيران .. وألقى عليها تحية المساء .. بصوت خافت . وأخبرها أنه مسافر للقاهرة ويتمني أن تطلب منه أي شئ يحضره لها

عند حضوره في إجازة نصف العام . أخذت تتحدث معه وتوصيه بأن يأخذ باله من نفسه ويذاكر جيداً ويحرص على صحته.

- وخذ بالك من بنات مصر وستاتها .

أُخذ من عبارتها هذه .. صمت لحظات . هب فيه المارد داخله .. أن اهتبل الفرصة .

- هما بنات مصر .. ييجوا حاجه .. بجانبك .

- ايه .. يا شيخ سالم .

- دا جمالك ده .. لو أتوزع على مصر كلها .. يغرقها ويفيض منه كمان . انتشت من كلماته .. وسعدت بها .. أسبلت عينيها حياءً ودلالاً .. فبدت أكثر جمالاً واشراقا وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة . واهتبل الفرصة .

نفسى تطلبى مني حاجه .. أجيبها لك تعبر عن تقديرى واعجابى . بعد صمت لحظات أجابت :

- ترجع لى بالسلامة . وأخذت فى الانصراف وهي تقول:

- أشوفك بخير .. الدنيا .. ليلت .. وكمان حد يشوفنا .

- أشوفك بخير .وأتمني أشوفك صباح باكر قبل سفرى .

- ها تسافر أمتي .

- بعد الظهر .

- إن شاء الله هاجي أسلم عليك .

طار .. امتلأ سعادة .. لم يقدر على كتم ما اعتمر داخله

. تسامي .. تبخر فى الهواء .. كان يقفز على السلم هابطاً حتى كان على الأرض فى قفزتين .. أفزعتا أفراد الأسرة المتواجدين فى وسط الدار عندما وجدوه أمامهم فجأة . وفسر لهم ذلك بأنه كاد أن يقع .

(٣)

عندما عاد فى إجازة منتصف عامه الجامعي الأول .. أحضر لها زجاجة عطر من الحسين أخفاها بحجرته حتى لا يراها أحد من أسرته . وترقبها عصر يوم حضوره على السطح ..حتى إذا رآها .. أقبلا على بعضهما يسلمان .

أمسك بيدها طويلا في يده .. وأخذ يتأمل جمال وجهها .. وهو يرنو إليها مأخوذا ..حتى إذا أفاق قال :

- وحشتيني قوى .
- أنت أكتر .
- احضرت لك زجاجة عطر من الحسين ، بعد لحظات تفكير :
- أنت سهران شوية الليلة . والا جاي تعبان .
- لا .. سهران .
- خلاص . بعد العشاء بشوية كده أما الناس تنام هاجي أخذها منك .. سيب الباب موارب حتى لا اضطر إلى الخبط عليك .
- فى انتظارك للفجر .

وسحبت يدها من كفه .. وانسلت إلى أسفل بيتها . وقف لحظات غير مصدق لما سمعه .

(٤)

عندما دخلت عليه الحجرة . وجدته راقداً على السرير محملقا فى السقف .. متأهبا ومترقبا لحضورها . وثب واقفاً وأغلق الباب خلفها .. خفف من ضوء اللمبة كعادته عندما يكون نائماً .. فعل ذلك وهو يتحرك كالمذهول .. المسحور .. الحالم .. كل ذلك فى شخص واحد .. ثم وقف قبالتها.. إلتقت عيونهما .. نظر إليها يتأملها .. ترتدي قميص نوم شفاف يبين منه أكثر مما يستر .

عندما رأي جسدها لأول مرة .. تصور أن فنانا بارعا أتقن صنعه .. صدر ناهد .ممتلئ .نابض .. زاعق بكل معاني الرغبة فى الارتواء .. وسط كقناة ضيقة تؤدي إلى ردفين ممتلئين ينسحب منهما ساقان مصبوبان .. ملفوفتان واعدتان بمتعة حقيقية عند الارتواء . وقفا لحظات كل منهما يتأمل الآخر .. يفصل بينهما خطوة .. ثم فجأة ودون ترتيب مسبق فتح كل منهما ذراعيه للآخر .. ليرتمى كل منهما فى حضن صاحبه .ونهلا من شبابهما ماروى شوق كل منهما للمتعة الحقيقية .. ونسيا نفسيهما تماما .. وحدثته خلال لحظات الراحة عن حياتها مع زوجها الذى لم تحس معه بالشبع منذ تزوجا وأفضت له بعجزه عن الإنجاب منها . وحكي لها عن حياته فى القاهرة وكيف كانت فى قلبه ووجدانه دائما.. حتى أفاقا على أذان الفجر يأتي إلى

مسامعهما من المسجد القريب .. فأسرعت إلى بيتها خشية استيقاظ زوجها واعدة اياه بتكرار ليالى الارتواء .وهب إلى المسجد بتلقائية اعتاد عليها عند سماع كل أذان ..حاملا معه منشفة ليستحم ويصلى . وهو عائد بعد الصلاة .. وقد أخذت خيوط النهار تكسى وجه الكون وترحل عنه خيوط الليل السوداء .. بدأت .. أثار النشوة ترحل عن وجدانه ويصفو ذهنه رويدا رويدا .. ماذا فعلت ؟! وكيف انسقت إلى ذلك دون أي مقاومة ؟! وأنا الأزهرى حافظ القرآن بين صدرى وعقلى ؟! لم ينم يومها حتى فرغ من صلاة العصر .. عندما وضع رأسه على الوسادة وطنين الأسئلة التى تبحث عن إجابة يطرد النوم من أجفانه .. أفاق على صوت المؤذن لصلاة المغرب مذعوراً ..

وهو يغادر حجرته .. رنا إلى سطح منزلها .. ولم يرها .. ولم يعرف هل صعدت عصراً لرؤيته كالعادة أم لا ..

واستلقى على الفراش منتظراً إياها بعد العشاء .. ولم تحضر ليلتها وفى اليوم التالى .. فتح باب الحجرة وهو يستذكر دروسه .. حتى يرى سطح منزلها جيدا مترقبا إياها . وقبل المغرب بقليل .. صعدت إليه .. واشارت بيدها اشارة خفيفة غير ملحوظة . مرسلة إليه السلام .. وابتسمت ابتسامة واعدة .وأومأت ايماءة بسيطة تعني أنها ستحضر له الليلة .. فأخذ يحصى الثواني والدقائق حتى دخلت عليه من الباب بين يديها آنية من أواني الطعام . وترتدي قميصا أكثر إغراءً من السابق . وجلست وسط الحجرة على الحصيرة التى تتوسطها وتربعت ونادته بدلال :

تعال يا خويا رم عظمك .. أنت تعبان فى المذاكرة .

وضحكت بإغراء ، وأكملت :

- وتعبينك معانا .

وكشفت عن فرخة محمرة .. وجوز حمام محشى .. وأخذت تقطع اللحم وتلقمه .

- اللّه .. وانت ما بتكليش ليه .

- أنا اتعشيت يا خويا معاه .. وحركت شفتيها فى امتعاض.

- ما كنت له أبداً .. وما كان لك.

- النصيب .. هنعمل إيه للنصيب يا خويا .. ثم يعني ما أحنا أهوه لك أكثر منه ..

- ايه أكتر منه ازاي .

- يا خويا .. الليلة السابقة .. شبعت منك أكتر من سنتين جواز عشتهم معاه .

حتى إذا فرغا من طعامهما .. بدآ فى نوع آخر من الإشباع .

(٥)

فى آخر ليلة.. من عطلة نصف العام .. عندما حضرت ومعها العشاء كما عودته .. وبعد أن فرغا من تناوله ..مدت يدها فى صدرها وأخرجت له كبشة من الأوراق النقدية ..وضعتها فى جيب جلبابه الذى عند صدره ..وهي تقول:

- كل يا خويا فى الغربة ..وما تحرمش نفسك من حاجه وانا من ناحيتي مش هابخل عليك بأي حاجه ..

عـايزاك ترجـع نـاجح .. وكمـان مـالى هـدومك كـده مـش هـافتان وخاسس ذى المره دي .

- تعطيني فلوس ؟! .. كمان ؟!

- إذا كنت بعطيك نفسى .هابخل عليك بأي حاجة أملكها . أنت كل دنيتي والخير كتير والحمد لله .. فيها إيه أما ينوبك منه جانب .

أعطاها ليلتها كما لم يعطها من قبل .. وارتوى حنينا يكفيه فترة غربته القادمة .

وغادرها تاركاً معها كل جوارحه .. فقد ملكت منه كل شئ حتى أصبح يفتقدها عندما تغيب عنه . بشكل لم يشعر به من قبل .. أصبحت كما لو كانت دمه الذى يجرى فى عروقه .. ينسحب منه عندما تغيب عنه .. ويجرى فى جسده فتجرى فيه الحياة عندما يراها . وعمل بوصيتها طوال غربته .. ذاكر جيدا وأكل جيدا وعاد لها ناجحا .. ممتلئ الجسم.نابضا بالشباب والحيوية .. يملأ العين .. ولشد ما كانت دهشته .. عندما أقدمت عليه أول ليله .. ولاحظ امتلاء بطنها بعض الشئ .. لدرجة لم تخف عنه أول ما وقعت عليها عيناه .

- ايه ده ووضع يده على بطنها . ابتست فى حبور ودلال .

- ابننا .

- ابننا ؟! وقد فغر فاه .

- أيوه يا خويا.. ابننا .. أمال يعني هايكون ابن الجيران.

- أهكذا .. وبكل بساطة تقولينها .. ازاي يا ست الدار سمحت لنفسك تحبلى .

- وفيها ايه ياخويا .. الراجل نفسه فى ولد وفرح قوي .. فاكر أنه ابنه .

- يادي المصيبة .

ضربت بيدها على صدرها ..

- مصيبة ايه يا سالم .. بعد الشر ياخويا

- يا ست الدار ده الشر نفسه .. ازاي تحبلى مني .. وتخلى جوزك يربى ابن مش ابنه .

- هو يعني عرف يجيب زيه ياخويا .. اسكت .. اسكت ده فرح بالحمل قوى .

- فاكره من صلبه .. وصمت شارداً .. تمدد على الفراش .. جلست بجواره مدت يدها تدعك بها صدره .. تناوشه .ظل فى شروده وصمته .

كيف حدث ذلك .. لماذا لم أحتط لهذا الموقف .. أيكون لى ابن زنا .. من صلبى أنا ويتكفل به رجل غيرى .. يرعاه ويتربى فى عزه .ويقول له يا أبى .. وأحرم أنا من ذلك . كيف أواجه به ربى .. والناس .

آخرتك سوده يا سالم .. ثم ما هو الموقف لو خرج الواد للدنيا وكان شبيها بى ماذا سيقول الناس .وماذا سيقول الرجل الذى يربيه .. ألن يشك فى الأمر . آه .. يا سالم .. يا أزهرى .. أنت الذى تفعلها وكيف تعظ الناس فى المسجد وأنت تخطب يوم الجمعة . أتقول لهم لا تزنوا .. وأنت الزاني.. ولك ابن زنا ومن زوجة جارك الذى أوصى النبى الكريم عليه حتى كاد أن يورثه .خسرت أخرتك يا سالم واللى كان كان .

- إزاي بس ياست الدار .. سبتي نفسك تكملى الحمل ..كنتى نزلتيه .. خلصتى منه .

- واخلص منه ازاي وهو منك .. أنت كل حياتي .. راجلى اللى بحبه وعايشه علشانه .

- وزوجك .. أمام الله وأمام الناس .

- أهو ربنا عارف كل حاجه . وهو كان يعني زوج ولا كان زوج ده يا خويا زوج بالاسم بس .. ومن يوم ما لمستني .. مالمسنيش خالص .. مابقدرش اديله نفسى . وهو كمان مافيش فيه . الحق يا خويا هو كويس فى كل حاجه .. ما بيعزش علىّ حاجه .. لكن فى العملية دي .. مالوش .. مالوش خالص . وأنا مابقدرش .. ما بقدرش أصبر .. يادوب بالعافية بقدر أصبر على بعدك .. والنبى يا خويا ومن نبى النبى لولا اخلاصى لك لكنت كل ليلة فى حضن واحد تاني . عند ذلك صرخ فيها :

- كنت قتلتك بإيدي دي . ومدها أمامها فى عنف . دا أنا أقطع الإيد اللى تتمد ناحيتك .

- طب يا خويا لما أنت بتحبني قوى كده .. وتغيرعلى زعلان كده ليه قوى .

- يا وليه ده حرام هايكون ابن حرام .

- لا .. هايكون ابني وابنك .

لم يعرف كيف ينقل لها ما يدور بداخله . لكن على ما يبدو أنها فكرت فى الأمر بطريقتها .وأقنعت نفسها بما رأته مناسبا لفهمها وقناعتها الشخصية . لم تتبق لديه الرغبة فيها تلك الليلة بعدما دار بينهما .. وما اعتمل داخله

من أفكار وهموم . إلا أنه أمام إلحاحها للارتواء جاوبها لمرة واحدة معللاً ذلك بتعبه من السفر . فغادرته وهي حزينة بعض الشئ . وهي تتوعده فى دلال بأنها لن تترك حقها الليلة القادمة .. وستخلص منه اللى فات .أخذ يتقلب فى فراشه .. كما لو كان يتقلب على جمر النار ..

وأخذت الأفكار السوداء تتوارد على خاطره .. تطن فى رأسه ..تعتمل فى صدره .. حتى ضاق صدره .. سخنت رأسه.. أخذ يضرب بيده على رأسه وهو يصرخ لنفسه ..

لماذا سرت فى هذا الطريق .. وجاوبتها .. ؟؟ لماذا لم أقاوم؟؟ أين كان ضميرى ؟؟ عقلى ؟؟ تركت الشيطان يتملكني ليه ياربى .

لا تلوم إلا نفسك .

أنت الذى كنت ترغب فيها .وسعيت إليها .وعليك وحدك الوزر .. لا .. هي اللى شيطانة جابت رجلى .. لو كانت قاومت .. أو حتى قالت لا .. أو حتى تمنعت شوية .. يمكن كان حصل فى الأمور .. أمور .. لكن أهو ده اللى حصل .واللى كان .. وعليك أن تحدد الآن هل تستمر .. أم تقف عند هذا الحد ..كيف ؟! هل أقدر على ذلك .. وقد أصبحت تملأ على حياتي .. نومي وأحلامي .. ويقظتي دي أصبحت هي اللى بتصرف علىَّ بعد ما الحالة تدهورت مع أبويا .. ويادوب اللى بيبعته ما يكفيش عيش حاف .كيف سأكمل تعليمي إذا توقفت وابتعدت عنها ؟

عندما سمع أذان الفجر .. خرج للصلاة بتلقائية.. وخشع فى صلاته بقوة.. سائلا الله الهداية وحاول بعدها النوم .. لكن الجفاء بينهما كان شديدا .. وظل يقلب الأمر على

جميع الوجوه .. وعندما لم يجد لنفسه مخرجاً فضل أن يترك الأمور على ماهي عليه . وفى المساء أعطاها كما تعود .ونهل منها ما أشبعه .. ونسى ما كان يقلق عليه مضجعه .. سائلا الله أن يديم عليهما الستر .

وظلا على لقاءاتهما الليلية المعتادة .. كما لو كانا زوجين لا ينغص عليهما أحد . وأخر سفره فى بداية العام الدراسى الثاني له ..حتى كحل عينيه برؤية ابنه وزارته ليلة سفره .. ونفحته ما يكفيه وتمنت له النجاح والعودة لها سالما على ألا يطول بعاده لحرمانها منه طوال مدة الولادة والنفاس .

(٦)

بعد عودته للمدينة ..كان هناك اختلاف بينا فى داخله عما كان قبلا . لعله تأنيب الضمير ؟! إحساس بالمسئولية تجاه الوليد ؟!

لم يدر على وجه التحديد ما به ؟! أو ماذا يريد ؟!

هل يستمر فى حبه وهواه الجامح .. الذى جرف كل ما أمامه ؟! أم يعود لنفسه .. ويتوب إلى ربه وينسى ذنبه ؟! .

تارة يجنح به هواه .وتارة أخرى يعود إلى رشده ويفيق إلى نفسه ويرغب فى التوبة .

ظل هكذا أيامه الأولى نهبا لصراع داخلى . لم يجد فى نفسه المقدرة على حسمه .

إلا أن شعورا داخليا تملكه . بأن حملاً ثقيلاً قد اعتلى كاهله . لدرجة أصبحت مشيته فيها انحناء ظاهر .. وعيناه دائما فى الأرض .كأنما تبحثان عن مخرج له .

ورويداً .. رويدا وجد نفسه يندمج فى الحياة الجامعية من جديد .. وينهمك فى دراسته ومذاكرته وبين الحين والآخر.. يهفو قلبه إليها .. وإلى وليدها .. أفرغ كل همه فى الدراسة كالمعتاد . وعندما عاد إليها فى عطلة نصف العام الدراسي . لفت نظرها بضرورة الحيطة من الحمل مرة ثانية .. إلا أنها لفتت نظره أنها ترضع أبنها بشكل طبيعي ولا داعي لحملان الهم حيث أن المرأة طوال فترة الرضاعة لا تكون معرضة للحمل .

واستمرت حياتهما معا .. كما لو كانا زوجين سعيدين لا ينغص حياتهما شئ . حتى أنهي دراسته وعاد إلى القرية ليعمل إماما وخطيبا فى مسجدها .. وبعد أن استقرت له الحياة عدة أشهر .. إذ بوالده يفاتحه بضرورة زواجه .. وعندما فاتحها .. فوجئ بها تضرب صدرها بيدها ..

- ايه يا نور عيني .. تتزوج ..أمال احنا إيه .. وأنا .. وابنك .. والعشرة دي كلها تبقى ايه هو ده مش جواز برضه يا خويا والا إيه .

- يا ست الدار .. اهدي وفكرى الراجل عايزني أتجوز أمام الناس .ويبقى لى زوجة وأولاد أمام ربنا والناس ..

صرخت به ..وهي تبكى وتولول :

- إيه يا سالم اللى أنت بتقوله ده . بعد السنين دي كلها جاي تقوللى اتجوز .. ومين يا أخويا إن شاء الله ؟ هاتلاقى اللى تحبك زيي أنا ؟ وأنا با أحب التراب اللى بتمشى عليه . هاتلاقى زيي أنا فين يا سالم ؟!

- والله .. أن جيتي للحق .. مش هلاقى التراب اللى

بتمشى عليه ..لكن الموضوع عايز تفكير هادي ..حتى كمان ما نديش لحد فرصة أنه يشك فى حاجه .. ده أنا باحمد ربنا أن الواد واخد منك أكثر مني .. وطلع شبهك وربنا سترها معانا وأهو الواد بقى عنده خمس سنين وربنا يخليه لينا وأنا برضه يعني ماهو جنبك يعني هاروح فين ما أنا هاكون تحت أمرك برضه . هي العشرة دي تهون عليه برضه . بس لازم شكلنا أمام الناس يكون سليم . والحمد لله ربنا ساترها معانا لغاية دلوقتي مانجيش احنا بايدينا ندمرها ونخرب على نفسينا . فكرى بهدوء .. وخلى الطابق مستور وياستي والله ما أنا متجوز إلا اللى انت تختاريها لى .. أخذت تنصت إليه مذهولة وعندما وصل إلى هذا الحد فى حديثه أجهشت فى البكاء وأخذت تجرى خارجه من الحجره .

(٧)

استكانت .. وسلمت للأمر الواقع .. واختارت له زوجته واتفقت معه على طريقة أخرى للقاء . فطالما ابنهما أصبح له من العمر خمسة أعوام .. طلبت من زوجها أن يعهد إليه بمسئولية تحفيظ الولد القرآن في البيت بالإضافة إلى تعليمه وتأهيله للالتحاق بالمعهد الديني ليشق طريق والده مما أتاح له الدخول والخروج عليها في البيت وفى أي وقت دون إحراج وخاصة أنهم جيران .

ورعي الولد بحماس شديد .. يتابعه فى دروسه ..غمره بكل حنان الأب .وأسبغ عليه من كل المشاعر التى كان يختزنها بداخله لأمه .. ولابن يأتي له من صلبه . حتى إنه إذا مرض كان هو الذى يأخذه إلى الطبيب .. وفى الإجازات

يصطحبه إلى المدينة .. وكان زوجها يعتبر ذلك جميلا كبيراً منه أن يهتم هكذا بوحيده ويرعاه . فكان يزداد حباً له ولا يريد له أن يبتعد عنه .. فكلما وجد نفسه خاليا من العمل .. يرسل له ابنه لإحضاره ليجلسا معا ويأكلا معا كأنه أخ له .. أو أحد أفراد الأسرة ، وعندما أقدم على الزواج قام الرجل .. برد الجميل الذى يراه فى عنقه له .. وكان عونا له فى كل شئ .واعتبر زوجته الوافدة الجديدة ابنة له .وكان عش الزوجية.. نفس الحجرة التى فوق السطح .

كما أنها أصبحت صديقة زوجته .. ودام الود واتصل .. واستمرت حياته الزوجية هادئة .. حتى حملت امرأته ووضعت له ولدا .. ثم ابنة وثانية حتى أصبح لديه من الأبناء خمسة .

ومرت الحياة هادئة .. رجل للإثنين والولد يتقدم فى تعليمه حتى أصبح معيداً فى إحدي الكليات الجامعية . وذات يوم وهو جالس معهم فى بيتهم أخذ زوجها ينتقل من حديث إلى آخر ثم فاجأه بطلب :

- ايه رأيك يا مولانا .. أنا نفسى ومني عيني أجوز أحمد ابني من بنتك سعاد . أنا شايف الواد ميال لها . وانت عارف كل حاجة .. عننا وأنا مش عايز منك حاجه .. البنت دي لله فى الله أنا باحبها وعايزها لابني .ومش هاعز عليها حاجة.

أسقط فى يدهما . لزما الصمت .. ألجمت المفاجأة لسانه. ماذا يقول للرجل . ووضعت وجهها فى الأرض تخفى مشاعرها .

- ايه .سكت ليه .. خلاص السكوت علامة الرضا .

مد إيدك نقرأ الفاتحة . واختطف الرجل يده وأخذ فى قراءة الفاتحة .

- يا حاج شعبان .. ايه ده اللى انت عملته . ده كلام يا راجل مش حتى أقول لأبويا وأهلى .

- يعني روحت بعيد يا شيخ .تعالى معايا .. وأخذ بيده وذهبا إلى داره .ونادي على أبيه ثم جلس يعرض عليه الأمر . وفوجئ بأن أبيه يبدي الموافقة ويمد يده للرجل ليقرأ معه الفاتحة .

لم يستطع اعتراضا .وكيف يعترض ؟! الوالد ومستقبله طيب ومبشر .. وهم أهل وجيران .ماذا يقول للناس معترضا .

تلاقيا ليلا فوق السطوح .ومضت المقابلة صامتة أغلب الوقت . لم يجد مخرجا .. وعليه اتفقا أن يبديا الموافقة إلى أن يأمر الله بأمره .

وهو يهبط السلالم كاد أن ينكفئ على وجهه . دخل حجرة النوم وأغلق عليه الباب .. تمدد فى فراشه .. يحملق فى سقف الحجرة أحس بجسده يغلى من ارتفاع حرارته . وتوقف عقله تماما .

لم يدر كيف انزلق إلى هذا الموقف ؟! أهي ارادة الله للانتقام منه ؟! ألم يجد هذا الرجل سوى ابنتي أنا ؟! ليت أمره كان قد انكشف وعرف الناس به فى هذه الحالة كان فى مقدوره أن يصرخ به قائلا . لا . وبالفم المليان .

وماذا لو قالها الآن ؟! ويحدث مايحدث .

استكانة غريبة بداخله تدفعه دفعا لقبول الأمر الواقع . وفوران أصاب عقله . أن أرفض وليحدث ما يحدث .

عندما دخلت عليه زوجته . ادعي استغراقه فى النوم .. وعندما تمددت بجواره وتلامس جسداهما شعرت بسخونته الشديدة .

- مالك يا راجل .. جسدك سخن قوى . رد عليها بإعياء.
- أنا حاسس أن أخرتى قربت .
- ايه يا راجل الكلام ده .. يعني دي فرحتك بفاتحة ابنتك
- آه .. فرحتي .. ده أنا فرحان قوى .

(٨)

بعد اتمام الزواج .. وجد نفسه زاهداً ..فى كل شئ حوله .. فجأة توقف عن لقاءاتهما معا .. تماما .. جافاه النوم أياما.. وليال شارد الذهن دائما .. لم يدر كيف انساق إلى كل هذا ألذى لم يكن فى حسبانه فى يوم من الأيام .

فى البداية مشيت وراء هواك .. وحبك لها لكن أن تزوج ابنتك لأخيها . ضد كل شرع وكل دين .. كيف تقبل هذا؟! وأكثر ما كان يؤلمه ويقلق مضجعه أنه لم يكن بقادر على أن يقول لا . أبعد كل هذه السنين يفضح سره مع هذه المرأة ؟! هل يعلن للناس .. يا عالم .. يا هوه أنا الشيخ خريج الأزهر .. إمام وخطيب جامع القرية .. زان وهذا ابني من الزنا ولا يجوز أن أزوجه من ابنتى ؟!

أن تكون فى موقف قادر على الحركة .والتصرف فيه شئ وأن تكون عاجزاً حتى عن إعلان رأيك شئ مختلف تماما . سجون الدنيا كلها أرحم من هذا السجن . هموم الدنيا تراكمت عليه أطبقت على صدره .. حتى ضاق عن

كل ما حوله .. وبكل ما حوله .. دائما منفردا .. وحيدا .. حتى هي .. عندما يراها عيناه فى عينيها ..تزوغان منه .. تذهب إلى بعيد عنه هي التى ما كانت ترفع عينيها عنه طالما كان موجودا حتى فى وجود الأقربين .. لعلها استوعبت المشكلة .. أم لأنها فهمت وأدركت كم يعاني من هذه الزيجة .

وفى يوم بينما هو جالس عندهم .. وحده .. حضرت إليه . وهمست له بأن ابنته حامل ..

كأن جبال الدنيا انهارت فوق رأسه . نظر إليها صامتا غير مصدق :

- بتقولي إيه .. حامل ..إزاي ؟

- أزاي أيه يا راجل .. هي مش امرأة زي أي امرأة مسيرها تحمل وتلد.

- أيوه .. لكن ..

- ايه يا خويا .. ده .. أيوه ..لكن .. لكن ايه يا خويا ..

أراد أن يترك المجلس ويخرج ..إلى أين لا يدرى المهم أن يخرج . هم من جلسته .. إعياء الدنيا كلها نزل عليه .. لم يستطع أن يصلب طوله .

- أقعد يا خويا .. قايم رايح فين .. مالك بعد الشر عليك.

- جوازة العيال قتلتني .. يا ست الدار .

صمتت .. لم تعرف بماذا تجيب ؟! وأدرك من صمتها أنها تدرك ما يعانيه .. تشعر بما يدور بداخله . أرادت أن تهون عليه الأمر ..

- يا خويا أهي غلطة . هو احنا يعني كنا ملايكة ولا كنا ملايكة .. ربنا غفور رحيم .. أنوي الحج السنة دي وتعالى معانا ..

وجد نفسه بتلقائية ..

- والله فكرة .

(٩)

بعد عودتهم من الحج بأيام قليلة .. تأهب الجميع لاستقبال الوافد الجديد .وكلهم أمل وانشراح إلا هو .. حقا قلت رغبته فى الانفراد بنفسه وخفت الكوابيس والأحلام المزعجة .. وازدادت رغبته فى النوم .. وعندما بدأت آلام الوضع تهاجم ابنته..التفت النسوة حولها فى حجرتها .

وتجمع الرجال فى حجرة الجلوس .وبعد قليل خرجت عليه ست الدار ونادته وزوجها وهمسة لهما .

- الداية بتقول أن الولادة متعسرة ولابد من طلب الإسعاف .

دون تفكير نادي الرجل على أحد الجالسين بالحجرة وطلب منه استدعاء سيارة الاسعاف لنقلها إلى المستشفى .

سحابة كثيفة .. غيوم .. ضباب .. تكدس كل ذلك فى رأسه .. فى عينيه .. لم يعد يدرك ما حوله .. لم يعد يستوعب ما يجرى .. انهار تماما .. جلس صامتا فى مكانه .. لا قدرة له على أي شئ . ينظر حوله مشدوها .

أدرك من حوله .. ما هو فيه .. تركوه وبدأوا التحرك لعمل اللازم وهو وحده بالحجرة . يتنابه إحساس عميق بأن شيئا ما بالغ السوء سوف يقع . أهوال قادمة انتقام سماوي

سوف يحل بها وبها .

وما هي إلا سويعات قليلة إلا وسمع صريخا وعويلا .. امتلأت الحجرة حوله بالرجال . وفد أناس كثيرون على الدار .. نساء متشحات بالسواد .. ورجال .. الكل يبكي ويصرخ من بين ذلك كله وصل إلى مسامعه كلمات متفرقات ..

ماتت قبل الوصول إلى المستشفى .. الجنين .. مات .. شكله .. شكل قرد .

(١٠)

الجنازة.. اقتربت من المقابر الرجال صامتون .. عند المقابر تجمع بعض النسوة وقد اتشحن بالسواد .. يصرخن .

يعتمد فى سيره على الرجلين بجانبيه .. لم تعد قدماه قادرتين على حمله . تمزق من الداخل تماما .. انهار كل ما بداخله . لم يعد ينتسب إلى عالم الأحياء .

وقف به الرجلان بالقرب من المقبرة المفتوحة لابنته .عيناه شاخصتان إليها .. يريد ان يرى زوج ابنته .. ابنه .

خرجت منه كلمات .. اشارات بيديه .. فهم منها من حوله أنه يريده ..

عندما حضر إليه .. وقف قبالته .. جاءت عيناه فى عينيه.

خلص ساعديه من مرافقيه ..احتضن ..ابنه وانهار عليه .. مصابا بأزمة قلبية .

وكان القاتل مجهولا

(١)

بعد أن خرجت الشمس من مكمنها .. بدأت تشق طريقها فى السماء .. وأخذت بأشعتها الوليدة تكابد كتل الضباب فى يوم شتوي معتدل .

امتطى السعيد أبو إبراهيم حماره .. متجها إلى حقله .. المزروع برسيما .. قاصداً إحضار ما يكفى غذاء الدواب لديه عدة أيام .. فالدنيا شتاء .. وصفاء الجو أمر غير مضمون . والمطر يحول غالبا بينه وبين ذلك . فيضطر إلى خلط المتبقى من البرسيم بالمتخلف من أعواد الأرز الجافة (قش الأرز) إلا أن ذلك يجعل اللبن المحلوب من الماشية غير دسم ولا تخرج منه القشدة بالكمية المناسبة لعمل الزبد التى تعد مصدراً من مصادر دخله بجانب ما يفيض عن حاجة العائلة من الحليب .

عندما وصل إلى رأس الحقل .. رنا ببصره كالمعتاد .. ناحية الترعة الكبيرة . التى تمر أمام أرضه لا يفصلها عنها إلا طريق ضيقة لا تكفى مرور أكثر من العربة التى

يقودهـا الحمـار . حيـث تعـود أن يجـد " جمعـة الـصياد " جالسا.. مـاداً غابـة سنارته الطويلـة .. فـألقى عليـه الـسلام زاعقاً حتى يسمعه . إلا أنه لم يسمع من الرجل الرد المعتاد .

فأعاد إلقاء السلام هذه المرة قائلا :

- السلام عليك يا عم جمعة .

فلمـا لم يـصله رد هـذه المـرة أيـضا .. أعـاد النظـر إلى مكانه قائلا فى نفسه " لعل الرجل أخذته نومة " ونزل من على حماره وعقد خطامـه فـى أحد الأوتـاد التـى دقهـا علـى رأس الأرض خصيصا لـربط المواشـى إليهـا .. واتجـه ناحيـة المكان الذى توقف عنده فى المرة السابقة وبيده (الشقرف) لحصد ما يقدر الحمار على حمله وهو عائد . إلا أنه سـاءل نفسه .

" هـو الراجل ده مـا ردش الـسلام ليـه . لعلـه رابـط رأسـه بحاجة تدفيه من البرد . لكن السنارة ما كـانتش مرفوعة زي العـادة ليـه .. عمومـا وأنـا راجـع أروح لعنـده وأعـرف ايـه الحكـاية " .

وظل مشغول البال بهذا الأمر حتى انتهي من وضـع كـل ما جمعه على ظهر الحمار بطريقة تضمن عدم وقوع أي شئ أثناء السير . وأخذ مقـود الحمـار بيـده واتجـه إلى الطريـق . حتـى إذا كـان قبالـة الـصياد .. أوقـف الحمـار .. وتوجـه إلى مكانـه حتـى إذا اقـترب .. ألقـى عليـه الـسلام .. فلـم يـسمع رداً.. ولاحظ أن يدي الرجل حول السناره وغير ممـسكتين بهـا .. وطرفهـا الأمـامي بالمـاء .. ورأس الرجـل سـاقطة علـى صـدره (والتلفيعـة) التـى يتلفـع بهـا طرفاهـا ناحيـة ظهـره ومعقودة بطريقة توحي بأن أحداً كـان يشدهـا علـى رقبتـه

من الخلف .

صرخ السعيد بالرجل .

- يا عم جمعة . . يا عم جمعة ..

تسمر مكانه لحظات محاولا استيعاب الموقف .

"الراجل ميت ؟! مقتول ؟! ده ده .. يا نهارك الأسود يا سعيد جرى لك ايه يا عم جمعه ؟! ومن يعمل فيك كده ؟! "

اجتاحته نوبة ذعر لم يعرف مثلها من قبل ..

"قتيل.. على راس أرضى .. وأنا أول واحد .. أشوفه لا .. مش أول واحد أشوفه لا .. مش أول واحد .. زمان عدي عليه ناس كتير رايحين جايين لكن مش واخدين بالهم .. اشمعني أنا اللى عملت ناصح .. كان مالك بس يا سعيد .." وهو فى وقفته هذه مر أحد جيرانه فى الحقل .. ألقى عليه السلام . فلم يرد عليه .. ولما لاحظ شرود السعيد ووقفته رافعاً يديه على رأسه " .

- مالك يا سعيد .. فيه إيه .. جمعة الصياد به حاجة. ونزل الرجل عن حماره وأسرع ناحية السعيد .

- جمعة .. باين عليه مقتول .. يا خويا .. الراجل قلت له السلام عليكم ماردش على جيت أشوف ما بيردش علي ليه لقيته بالمنظر ده باين مقتول .. ولا ميت .. أنا مش عارف .

- ربطة التلفيعة ده بتقول أنه مش موتة ربه يا سعيد .. ووقف هو الآخر مشدوها لحظات .. ثم قال :

- سعيد بقولك ايه يا خويا .. احنا لا شوفنا ولاعرفنا بدل ما ندخل فى سين وجيم مع النيابه ويحبسونا على ما

الحقيقة تبان .. وموت يا حمار .. ياله يا خويا نروح وكأننا ما عرفناش حاجه .

وبينما هما يتلفتان ناحية الطريق . مر اثنان آخران يركبان مطيتاتهما فلاحظا الموقف فأوقفا دابتيهما ونزلا .

- إيه اللى حصل يا رجالة ؟ .. مالكم واقفين مبلمين كده ليه .. وماله الراجل ؟! ..

وهكذا أسقط فى يد السعيد .. وأخذ الجمع يزداد .

ولم يعد أمامهم مفر من إبلاغ نقطة البوليس بالقرية . وحضرت النيابة والطبيب الشرعي وأخذت التحقيقات مجراها الطبيعى وتم القبض على السعيد الذى أجمع الكل على أنه أول من شاهد القتيل . ووجهت إليه تهمة القتل فى التحقيقات وألقى به فى السجن لحين انتهاء التحريات والتحقيقات ووصول تقرير الطبيب الشرعي .

(٢)

بعد أن أنهى جمعة الخدمة العسكرية .. وكان والده قد توفى وهو صغير .. وتركه وحيد أمه .. التى كانت فى ريعان الشباب وأجمل من كثير من بنات القرية . فلم تستطع الصبر بدون رجل وخاصة وأهلها كانوا يلحون عليها كثيراً .. للزواج ..حتى لا يتعرضوا للقيل والقال . وخوفاً من ضياع الفدانين اللذين ورثتهما هى وابنها عن زوجها واختاروا ابن عمها زوجا لها . وخاصة أنه كان يحبها ويرغب فى الزواج منها إلا أنها كانت تميل إلى من تزوجته ولم يطق الزوج أن يعيش معه وتحت سقف بيته هذا الابن

الذى يذكره دائما بأبيه الذى فضلته عليه .

فصبر حتى كبر وأنجب بنتين وولدين من زوجته وحتى إذا انتهي من الخدمة العسكرية ولم يعرف بعد ماذا سيفعل فى حياته فجلس أسبوعين فى الدار يدبر أمره .. حتى افتعل الرجل معه مشكلة وادعي لزوجته .

- ابنك ده طالع لأبوه . وبيكرهني .. مش طايق يشوفني قدامه .. وأنا بصراحة كده ما عنتش طايقه كمان فى البيت .

- طب هايروح فين .

- يروح ولا ما يروحش .. أنا ما عنتش عايزه فى الدار وعلى الطلاق منك ماهو بايت فيها كمان .. سمع جمعة الحوار .. فأخذ ملابسه فى حقيبة صغيرة كانت عنده وذهب إلى بيت عمه الوحيد .. وعندما حكى له ما حدث صمت الرجل قليلا .. وقال له :

- يا عني امك ترميك .. وعايزني أنا اللي ألمك وانا عندي بنات على وش جواز . طيب إزاي تقعد فى الدار بالوضع ده .

اسودت الدنيا في وجهه .. فأخذ حقيبته واتجه ناحية محطة القطار قاصداً السفر من البلدة تاركا إياها لأهلها. وهو واقف فى انتظار القطار يفكر إلى أين يسافر .

تذكر زميله فى الجندية " معاطي " من قرية ليست بعيدة . حيث كان الصديق المخلص له فقرر السفر إليه. وعندما حكي لأهل معاطي حكايته .. طيبوا خاطره .. ولم يمانعوا فى بقائه معهم والعمل بالقرية فى أي شغلانه وربك

الرزاق حسب قول والد معاطي . وفى صباح اليوم التالى اصطحبه والد معاطي إلى دوار العمدة .. وشرح له أمره فلم يمانع العمدة من شغله فى الدوار يرعي البهائم ويزرع الأرض مع غيره من الأنفار .

(٣)

مرت سنوات على ذلك الرجل .. يعمل ويقيم فى الدوار حتى بلغ مبلغ الرجال .. فاقترح عليه والد صديقه أن يختار إحدي بنات القرية ممن يرضين به ويكمل نصف دينه .. حيث كان معاطي قد أنجب ثلاثة من الأولاد وأصبح واجبا عليه أن يتزوج حتى لا يفوته قطار الزواج واختاروا له واحدة يتيمة الأم والأب تعيش فى كنف زوج أمها الذى أعطاها داراً قديمة من حجرتين بالطوب اللبن فى طرف القرية كان يستخدمها فى تخزين علف الدواب وأي شئ ليس فى حاجة إليه . واستقر بهما الحال .. ولكن لم ينجبا وعاشا حياتهما بعيدا عن المشاكل قانعان بما قسمه الله لهما .. إلى أن حدث يوم واكتشف العمدة وجود سرقة فى خزين القطن .. فجمع الأنفار التى تعمل لديه بالدوار.. وهددهم جميعا إن لم يتقدم السارق من نفسه ويقر بما فعل .. وساعتها سيغفر له ويسامحه ويتركه لحال سبيله وإلا سوف يظل يبحث عنه حتى يعرفه وساعتها لن يتركه إلا فى السجن ورغم أن معظم الأنفار كانت تعرف الفاعل الحقيقى وهو واحد من أهل القرية إلا أنهم أجمعوا أمراً بينهم وذهبوا للعمدة وأبلغوا أن جمعة هو السارق وأنهم شاهدوه وهو يخرج ليلا بسرقته لبيعها . إلا أن الرجل لم يصدق هذه الوشاية وإن كان بحنكة ادعي تصديقه للأمر وأنه أبقى عليه مدعياً أنه يريد أن يمسكه متلبسا . وعندما

أدرك جمعة ذلك طلب إعفاءه من العمل لديه لأنه سلم هذه المرة .. وربما مرة قادمة تكون السرقة أكبر ويتهمونه أيضا فتكون المصيبة أشد . فآثر السلامة ووافقه العمدة على مضض .. وتفهمت زوجته ذلك . وعاشا على مايرزقهما به الله من عمل مؤقت يكفى قوتهما .

واحترف جمعة الصيد بالسنارة . فإن طلبه أحد لأي عمل .. ذهب إليه .. وإن لم يكن هناك عمل حمل سنارته وبحث عن رزقه .. واعتاد على مكان معين للصيد فيه عرفه أهل القرية . حتى إذا أراده أحد لشئ ما ذهب إليه فى مكانه .

وفى يوم علمه بوفاة والدته . أصطحبه معاطي وزوجته للعزاء .. وعندما وجد نفوراً من أهله .. واندهاشاً لحضوره .. فسر ذلك بأنهم ربما ظنوا أنه حضر لأخذ ميراثه من أبيه .. وصدق ظنه عندما ترك زوج أمه العزاء وجاء للجلوس بجانبه وقال له هامسا :

- من أولها يابن الناس .. أنا عايز أعرفك أن أمك باعت لى الأرض بيع وشرا .. وصرفت ثمنها على جواز البنات وعلاجها وهي مريضة .. وأنا باعرفك أهو علشان مش عايزين فضايح ومشاكل .

نظر إليه جمعه .. فى أسى وقال :

- أنا أصلا ما كنتش عايز آجي .. لأن اللى مسألش عليَّ السنين دي بعد ما طردني من بيته ما يستحقش آجى له تاني لولا أن معاطي قال لى دي أمك ولازم تحضر عزاها .. وعلى العموم .. أنا استعوضت ربنا من زمان .. يا جوز أمي .. وترك .. العزاء وغادر القرية إلى حيث أتي .

(٤)

شاع بين الناس أن جمعة لديه ميراث من أمه .. وأن زوجها لا يستطيع التصرف فى الأرض إلا بموافقة جمعة .. وأشاعوا أيضا أن زوجته طلبت ميراثاً لها من أمها أيضا .. وأصبح الناس يتهامسون على ما يملكه جمعة من أرض .. بل أراضٍ هنا وهناك .. وأن ذلك ربما يكون السبب وراء مقتله .

وانتشر رجال الشرطة السريين بين أهل القرية .. وفى قريته الأصلية .. يرصدون ما يحدث وما يقال .. ويتحرون عن الحادثة .

أغلقت زوجة جمعة باب دارها على نفسها .وصمت أذنيها عن كل ما يقال .. فلديها قناعة .. بأن زوجها لم يكن له أعداء .. وأن ما يقال لا يدخل فى قناعتها اطلاقاً . وبعد أيام شاع فى القرية أن السعيد تجدد حبسه .. وأنه المتهم الرئيسى .

وعندما قابلتها جارتها وهي خارجه يوماً لأمر من أمور حياتها وسألتها عن حالها .. وانتقلت بالحديث عن مقتل زوجها . قالت لها :

- جمعة مات موتة ربه .. يا خاله .. مين هايقتله .. وعلشان إيه .

- علشان إيه .. أمال الأرض اللى ورثها عن أمه هاتروح فين.

- أرض إيه يا خاله .. لو كان معانا أرض كان بقى ده حالنا .

الأم

بعدما تخطت (سعدية) الخامسة والعشرين من عمرها.. اعتبرت ان قطار الزواج قد فاتها . وعلى ذلك تسلل الى داخلها إحساس بأنها غير مرغوب فيها كامرأة . بدأ هذا الإحساس يكبر بداخلها مع مرور الأيام حقا أنها أكثر ميلا إلى السمرة . وأن وجهها المستدير يخلو من كل ملامح الجمال. . إلا أن لها جسدا مميزا . . ساقان ملفوفتان.. وردفان معبران . . . ونهدان ممتلئان صارخان بكل أنوثة . هى تدرك ذلك جيدا . . وتفهم تماما نظرات الرجال إلى مؤخرتها وساقيها وخاصة عندما تشمر عنهما ثيابها أثناء العمل فى الحقول . كما أن أمها عبرت لها عن ذلك صراحة . . عندما أخبرتها ذات يوم وهى تساعدها فى الاستحمام .

- عليك جسد ياسعدية . . اللى يعرفه يتاقله بالمال . ومصمصت شفتيها حسرة .

وتدرك سعدية أيضا . . انه لو كان لدى أبيها شىء من المال . . أو قطعتين من الطين (أرض) . . لأضفيتا عليها جمالا غير موجود فيها وساعدا الشباب أو واحداً منهم على

الأقل على تجاهل فرق الجمال هذا .

ومع الأيام تضخم هذا الإحساس بداخلها حتى انقلب إلى نوع من اللامبالاة . . وعدم الرغبة في الحياة أصلا . أكلت أم لم تأكل . . شربت أم لم تشرب . . عاشت أم ماتت ماهو الفرق ؟.

فمن وجهة نظرها أن المرأة غير المرغوب فيها موتها أفضل .

إلا أن أمها كان لديها اليقين بأنه سيأتي اليوم الذى يتقدم الى ابنتها الرجل الذى قسمه الله لها .

وجاء هذا الرجل . بائع خضر متجول . . يحمل على جانبى حماره (جنابه) ممتلئان بالفجل والجرجير . .

وكثيرا ماكان يقف أمام دارهم مناديا على بضاعته فتخرج لتشترى منه ببيضة ربطتى فجل وجرجير . وأحيانا يتبادلان الحديث بشكل عارض .

وفى يوم حدثها عن نفسه . . . أنه يعيش بمفرده ولم يسبق له الزواج في دار من حجرة واحدة ولا يملك إلا ساحلا ((قطعة ارض على شط الترعة)) صغيراً يزرعه بالخضر ويتعيش من بيعه بالإضافة إلى عمله أجيراً في مواسم الزرع والحصد . وعندما أخبرته انه يبدو كبيرا في السن . . يقترب من الخمسين عاما . أبدى استهانته بذلك موضحا لها أنه من الأفضل لها وله أن يكملا بقية عمريهما معا بدلا من أن يظلا وحيدين . فكرت لحظة . . ثم قالت له :

- وماله ياخويا . . كلم أبويا .

وكان أن تزوجا واصطحبها إلى حجرته وعاش معا يدا

بيد فى كل شىء . حقا لم تشعر بالارتواء كما كانت تتوقع أن يكون الارتواء من الرجل . . وذلك لكبر سنه . إلا أنها أقنعت نفسها بأن شيئا . . . أفضل من لاشىء على كل حال .

ومضت بهما الحياة حتى أنجبا بنتا . . أسمياها صبرية وولدا أسمياه حجازي . وبعد ما يقارب السنوات العشر من الزواج رحل زوجها عن الدنيا تاركا لها الولدين بين ثماني سنوات للبنت والسبع للولد .

استمرت بعده تزرع الساحل . . وبدلا من أن تتجول تبيع الخضر . . أحضرت ((تشطا)) ووضعته أمام حجرتها تبيع فيه بضاعتها واعتاد الناس عليها واعتادت على ذلك . وأحيانا كان الأمر يتطلب ان تجلس هكذا لما بعد آذان المغرب صيفا وشتاء .

كان يتصادف أثناء وجودها بالساحل . . أن يكون سليمان صاحب الأرض التي قبالة ساحلهم مباشرة . . يروى الأرض . . أو يبذر السماد فكان ينتهي من عمله ويأتي إليها مساعدا إياها في اقتلاع أشجار الخضر وتجميعها في ربطات معدة للبيع وبمرور الأيام كان يعود معها سائرين على أقدامهما يوصلها إلى دارها ويكمل طريقه إلى داره التي تبعد عن دارها قليلا . ثم اخذ يتعود على الحضور إليها وهى جالسة تبيع خضارها حتى تنتهي من عملها . ويعود ولديها من لهوهما مع اقرانهما ويتركها ليذهب إلى داره لتناول عشاءه وتنهض هي لإعداد العشاء لها ولولداها ثم بعد ذلك تجلس أمام دارها قليلا . . . وولداها يلعبان أمامها إلى أن يرغبا فى النوم فيأويان إلى حجرتهما .

لا تدرى على وجه التحديد كيف تطورت الأمور بينها وبين سليمان .. حقا إنه متزوج ولكن ليس لديه أولاد ... ويكبرها بثلاثة أعوام فقط وبدأ الحديث بينهما يأخذ مجرى آخر .. كلمات غزل وشكوى من زوجته وعدم انجابها .. وانه يرى فيها أشياءً لايراها فى زوجته .. وتطورت الامور من كلمات إلى لمسات لأجزاء من جسدها .

حتى تواعدا أن يجيء إليها ليلا فى ليلة شتوية بعد أن نام أولادها وقد تركت الباب مفتوحا حتى لا يحدث صوتا يلفت انتباه الجيران أو يوقظ الأولاد . لم تعرف كيف تتصرف فالفراش عبارة عن مرتبة مفروشة فوق حصير على الأرض . فما كان منه إلا أن فرش الحصير الذي كانوا يتناولون عليه الطعام فى جانب من الحجرة بعيدا عن الولدين .. وناموا فوقه معا .

لم تذق للجنس حلاوة كما ذاقتها ليلتها .. ولم تعرف المعنى الحقيقي لمعاشرة الرجل إلا وهى بين أحضانه فأيقظ بداخلها المارد الذي نام منذ بدأ بداخلها الإحساس بأن قطار الزواج قد غادر محطتها .

وبدأت تشعر بأن لحياتها طعم آخر .. وجرى الدم في وجنتيها وأخذت ملامح وجهها تشرق بشيء من الحياة . حتى بدأت هي التي تطلب من سليمان ان يحضر إليها . وأحيانا كانت تعد له العشاء معها وأولادها ولا تتركه يذهب للعشاء مع زوجته .

وأخذت العلاقة بينهما شكلا ملفتا . حتى بدأت الأقاويل تتناولهما .. وشعرت زوجة سليمان بما على زوجها من تغير ومنعته من الذهاب إليها أو الحديث معها . فامتنع

عنها أياماً . لم تصبر على احتمالها . ولم تقدر على كبت رغبتها المتأججة .

واستجابت مع أول محاولة من جار لها كان يرى في نفسه أنه الأولى بحكم الجيرة من سليمان . . حقا إنها لم تشعر معه بما كانت تشعر به من متعة مع سليمان . إلا أنه كان يروى عطشها ويشبع رغبتها .

واستجابت لمحاولات أخرى من الشباب . . حتى أصبح أمرها معروفاً بينهم . . ورفضت بعنف أية محاولة من رجل كبير السن . وعلى ذلك كانت حريصة تماما على عدم افتعال أى مشاكل مع أى من الجارات إلى أن تردد عليها شاب . . عرفت زوجته بأمره . . وكانت تغار عليه فحضرت ومعها أخت لها قبل المغرب بقليل وأمسكتا بها أمام الدار . وأخذتا تضربانها وتصرخان بها وترميانها بأقبح الألفاظ حتى تجمع أهل الحارة كلهم حولها . ومن بين المتجمعين ولداها . ومزقا ثيابها وأظهرا مناطق حساسة من جسدها وتصيحان :

- اللي ما يشترى يتفرج .

وعند ذلك تدخل بعض من الواقفين والواقفات وأنهيا المشاجرة وأدخلاها إلى حجرتها هي وولديها وأغلقا الباب عليها وهى تبكى .

تكورت مسندة ظهرها للحائط . . دافنة رأسها بين ساقيها ..وبجوارها جلست ابنتها على نفس الهيئة تبكيان.. والولد أسند ظهره إلى الحائط المقابل . . ساندأ كوعيه على ركبتيه . . محملقا فى سقف الحجرة . . المكون من عروق خشبية مرصوصة بحذاء بعضها ، دون أن يذرف دمعة

واحدة .

لم تكن تتصور أن تصل الأمور بها إلى هذا الحد . . كيف ستواجه الجيران فى الصباح ؟! وبأى وجه ؟! والأدهى من ذلك ولداها . . لقد كبرت البنت وتعدت العاشرة . . ولعلها فهمت ما حدث . وابنها الذي تعدى التاسعة . وكيف سيلعب مع أقرانه فى الحارة ؟!

جفت دموعها . . وصحت أفكارها .

يجب أن أتوقف عن ذلك ؟! ولكن هل أحرم نفسي من هذه المتعة ؟ وأعود مرة أخرى إلى أيام الجفاف . . أتقلب في فراشي كالمجنونة.

هداها فكرها ان تكف عن ذلك مع المتزوجين وتكتفي بالشباب غير المتزوج . فلا زوجة تنتظره في الدار وتغير عليه منها . .

ياما الأبواب مدارية . عندما وصلت بفكرها إلى هذا الحد . بدأت تشعر بهدوء نفسها فقامت توقد ((لمبة الجاز)) وتغير ثيابها . . وعندما أحست بالجوع . أعدت ((الطبلية)) وأحضرت عدة أرغفة وقطعة جبن وربطتين من الخضر بعد أن غسلتهما بالماء . وتربعت تتناول طعامها . وبعد أن وضعت أول لقمة فى فمها وقعت عيناها على ابنتها.. فتذكرت ولديها . وأشارت اليهما . . فحضرت البنت . . وجلست بجوارها . أبى الولد . . . وأشاح بوجهه فنادت عليه فلم يجب .

اقتربت منه مرتكزة على يديها وركبتيها . . ثم مدت يدها تربت على كتفيه فإذا به يفاجئها دافعا يدها عنه

بعنف ونظر إليها وعيناه تقدحان شررا .

- إيه . . يا بنى . . مالك . .

التفت برأسه للناحية الأخرى . . تجاهلها تماما . ودون أن ينطق بحرف ابتعد عن مكانها . . ومدد جسده على الفراش مبديا رغبته في النوم .

عادت إلى مكانها السابق . . وأكملت عدة لقيمات هي وابنتها . . ثم عادت إلى جلستها السابقة ساندة ظهرها إلى الحائط . . مادة ساقيها للأمام . . وجذبت ابنتها إلى جوارها . . . واحتضنتها إلى صدرها ثم أنامتها على فخديها . وأخذت تعبث بأناملها في شعر رأسها حتى نامتا وهما على هذا الوضع .

بدأت تشعر بمرور الأيام بتمرد ابنها حجازي عليها . لم يعد يحدثها إلا فيما ندر . . ولم تلتقي نظراتهما إلا مرات معدودة . ولكنها لم تقدر هذا التمرد حق قدره . . فقد بدأت علاقاته بأقرانه تأخذ شكلا آخر . . أصبح كثير التشاجرة معهم . . ودائم الاعتداء وكثيرا ما يتجمعون حوله ويضربونه وما كان يغيظها أنه لم يكن يأتي إليها باكياً أبدا . . وكان دائما حريصا على أن يأخذ حقه بيده من كل من يعتدي عليه أو يسبه بأمه . في داخلها كان ذلك أمر يسرها لكن في نفس الوقت لم تكن ترغب في أن يكون ذلك بشكل دائم حتى لا يسمع دائما سب أمه . الذي كان دائما ما يثيره إلى حد الجنون .

وحرصت بينها وبين نفسها أن تكون نزواتها خارج حجرتها . في الحقول القريبة من أطراف القرية . أو في التلال المكونة من مخلفات المواشي حول القرية . . أو على

شوية قش الأرز في ((الأجران)) ودائما أثناء الليل والأولاد نيام .

ومرت الأيام .. وما أسرع مرورها .. وبدأت ابنتها تظهر عليها علامات الأنوثة .. وأصبح لها نهدان صغيران وكبر ابنها وبلغ مبلغ الشباب بدأ شاربه ينبت . واقترب في طوله من طولها . وأصبحت تخشاه وخاصة أنه مازال على عهده معها . متجنبا إياها إلا انه بدأ يسائلها .. عندما تغيب أو تتأخر في قضاء حاجة .. وأخذ يقوم هو برعاية الساحل وإحضار الخضر وبيعه وكان يصر عندما يستأجرهم احد إن يكونوا جميعا معا .. حتى تكون هي وأخته تحت رعايته .. وما أخافها وأسعدها في نفس الوقت أنها تلاحظ أن له هيبة بين أقرانه أو حتى بين الرجال .. فكانوا يحرصون على عدم إهانة أى منهما أمامه . ولفت نظرها انه بدأ يهتم بنفسه ونظافة ثيابه بشكل واضح . فبدأت تخشاه أكثر وأكثر وازداد حرصها في نزواتها .. بل قلت الى حد بعيد .

وذات ليلة خرج بعد تناوله العشاء .. وعندما عاد لم يجدها في الدار وأخبرته أخته أنها قالت أنها ذاهبة في مشوار صغير وستعود .. انتظرها واقفاً أمام باب الحجرة . وطالت غيبتها .. وعندما عادت وجدته واقفا مازال في انتظارها .. وانتظر عليها حتى دخلت من الباب ثم أوصده خلفه .. واحضر عصا كان قد أعدها من قبل خلف الباب ثم سألها والشرر يتطاير من عينه

- أين كنتي ؟!

فأجابته باستكانه :

- فى مشوار

- فين المشوار ده .

زعقت فيه :

- إنت اتجننت . . بتحاسبني ياواد .

عند ذلك أدرك . . تمام الإدراك . . . إنها عائدة من إحدى نزواتها . فانهال عليها بالعصا . . وعندما صرخت . . وضع يده على فمها قائلا :

- اقسم بالله العظيم . . إن سمعت لك صوت ؟ ما عاد طالع لك صوت بعدها .

وأخذ ينهال عليها ضربا . . وفى أي مكان تطوله العصا . . حتى استسلمت له تماما . . وانهارت على ارض الحجرة وهو مازال ينهال عليها وأصابتها ضربة قوية على رأسها . . فصدرت منها صرخة مكتومة . . وضعت يدها على رأسها وكفت عن الحراك .

كف عن الضرب . . ووضع العصا مكانها خلف الباب . نظر إلى أخته . . فوجدها منزوية في أحد أركان الحجرة مذعورة . صرخ بها .

- إياك تمشى على هواك زيها . . . ساعتها سوف أقتلك أنت وهى . قومي رشي عليها شونة ميه وفوقيها ولا عنها ما فاقت .

ثم خرج من الحجرة . . وأغلق الباب وراءه وظل جالسا أمام الحجرة . . وقد جافاه النوم حتى سمع آذان الفجر من المسجد القريب من الدار . عندها دخل الحجرة وانزوى في ركن بعيد عنهما ومدد جسده المكدود . . ونام حتى

الظهيرة .

وعندما استيقظ وجد أخته .. تقوم بإعداد الطعام وأمه مازالت ممددة على الفراش . وقد ربطت رأسها بوشاح مبلل بالماء . فقالت له أخته :

- أمك مش قادرة تتحرك .

- عنها ما تحركت .. خليها تموت أحسن .

وظلت في رقدتها هذه ما يقرب من أسبوع عادتها فيه الجارات ونساء الحارة . على سبيل المجاملة . وبعد يومين امتنعت فيهما عن تناول الطعام تماما .. أخذت تستجيب لإلحاح ابنتها وتتناول القليل منه . وفى ليلة .. أيقظته شقيقته .

- حجازي .. أمك باين عليها ماتت ..

شهقت وسكنت مرة واحدة .

فقال لها بعد أن تحسس جسد أمه ووجده بارداً صلباً.

- أيوه .. ماتت

صرخت أخته .. صريخا متواصلا .. حتى اقتحم عليها الجيران الحجرة . وعندما تبينوا حقيقة ما حدث .. احتشدت النساء بالحجرة .. وجلس مع الرجال أمامها مستعينين على الظلمة ببعض الفوانيس .. حتى طلع عليهم النهار وانتهى الغسل وتم دفنها بعد صلاة الظهر وأصر على أخذ العزاء في المقابر فقط . ثم عاد إلى حجرته وأغلق الباب عليه هو وأخته .

الابنـــة

منذ رأت صبرية أخاها حجازي وهو يضرب أمه في تلك الليلة وهى لا تدرى ما حدث لها . أشياء بداخلها تغيرت . . . ومعـان جديدة ترسبت . لقد أدركت من الوهلة الأولى السبب الرئيسي الذي دفع أخاها لفعل ما فعله . . وهى وان كانت لم تظهر ذلك . . توافقه . شيء ما ثابت وراسخ في رأسها يميل إليه . لكنها بعواطفها تشفق على أمها . فقد فهمت منذ زمن ليس ببعيد وهى اصغر من ذلك بسنوات . . معنى ما تفعله أمها فقد استيقظت ذات ليلة على صوت وحركات أمها أثناء معاشرتها لواحد من المترددين عليها .

ولم يفطنا إليها . . فأغمضت عينيها وادعت النوم وظلت تنصت لكل شيء حتى غادر الرجل الحجرة . وعندما تمددت أمها بجانبها . . سألتها بصوت هامس

- مين ده . . يا أمه .

- يا خرابي . . أنت كنت صاحية .

سكتت الأم لحظات . . وضربتها بعدها على وجهها . . وهددتها قائلة .

- إياك تقولي لحد . . حتى أخوكى . وإياك تستعبطي مرة ثانية وتتصنتى علينا .

- وليه كده يا أمه ؟!

- عندما تكبرين . . سوف تعرفين ليه .

فهمت أن هناك شيئا ما . . تفعله أمها . . وتخشى أن يعرفه أحد . ولكنها لم تفهم . . لماذا تفعل ما تخشى أن يعرف أنها تفعله ؟! ثم من هو هذا الذي يتردد عليها ليلا ؟

أهو واحد بعينه أم أكثر من واحد ؟ وهل لو كان أبوها حياً كان سيسمح بذلك ؟ . . ثم لماذا تخشى ان يعرف أخى بذلك ؟ أليس صغيرا مثلها ؟

أسئلة كثيرة دارت برأسها ولم تعرف لها إجابات وان كان ذلك فى حد ذاته قد ولد لديها أمان كبيرة . في أني يكون أبوها مازال حياً . . . على الأقل لمَ يكن ليحدث ما يحدث الآن .

داعبتها الرغبة في أن يكون واحد من المترددين ليلا على أمها . . يعاملها كأب ويشعرها بأبوته ساعتها لن تتردد فى أن تلقى بنفسها بين أحضانه . . لكن . . لا . . إنها لا تعرف منهم إلا أشباحاً ليلية . فاتجهت بمشاعرها إلى أخيها الأصغر . . فليكن هو أخاها وأباها . ومن لها غيره؟ فأحست بحبه يسرى فى وجدانها كله .

ولما رأته يضرب أمه . . خافتة . أحبته وخافتة في الوقت نفسه . وحاولت أن تتفهم أسباب ضربه لها . فطالما كان ذلك الأمر لا يتم إلا ليلا ونحن نائمون فإن ذلك أمر على ما يبدو خطأ . . وفهمت فيما بعد انه حرام أيضا . ولهذا وافقته على أن يضرب أمه . لكن أن يصل الأمر إلى كل هذه القسوة عليها . . فهذا ما كانت لا تتصوره . . وذلك ما أرعبها من أخيها . . أخافها بل جعل الخوف منه يسرى في كل بدنها . . تتشربه خلايا جسدها والذي زاد من هذا الخوف . . موت أمها بعدها بأيام قليلة . وأصبحت تخاف من الرجال . . كل الرجال لأنه واحد منهم أولا . . . ولكونهم السبب في انه ضرب أمه أمامها ثانيا .

حقا . . بعد موت أمها . . وعندما أصبح لا أحد لها سواه

ولا أحد له سواها . اتضحت مشاعره ناحيتها وبدا لها عطوفا . . حنونا . . يخاف عليها من نسمة الهواء على حد القول . ولأنه لم ير منها ما يمت بأية صلة إلى سلوك أمه . . وخاصة بعد أن تفتحت أنوثتها . . وبدأ جسدها يستوي . . وتتضح معالمه . . بساقيها الملفوفتين وردفيها الممتلئين كأمها تماما إلا أنها تميزت عنها باستدارة الوجه مع ميل إلى البياض أكثر من أمها . ومسحة من جمال في ملامح وجهها .

أخذت من جسد أمها إثارته . . وزادت عنه في جمال الوجه وميله إلى البياض . فكانت مثار اهتمام الكثير من الشباب . وفي نفس الوقت مثار اهتمام أخيها ومبعث فخره إنها لا تمت إلى أمها بصلة من ناحية السلوك . حتى أنه حدث يوما أن واحداً من مريديها انتابته الشجاعة وحاول إثارة انتباهها إليه . . فغازلها . . فما كان منها إلا أنها صدته صدوداً عنيفاً . . وأخبرت أخاها فما كان منه إلا أن تربص بذلك الشاب وأعطاه علقة يحلف بها طوال حياته . وبعد العلقة هذه بشهرين . . فوجيء حجازي بهذا الشاب يستوقفه يوما ويلاطفه ويخبره بأنه يرغب في زيارته بصحبة أبيه خاطبين شقيقته . فرحب به . إلا أن دهشته كانت بالغة عندما وجد من أخته اعتراضاً شديداً على الزواج وخاصة انه يرى أن الشاب مناسب جدا لأخته . . وعندما استوضح منها الأمر . هل هي ترفض الشاب ؟ أم ترفض الزواج بشكل عام ؟! وعلم انه رفض لفكرة الزواج . . ظل يحاورها حتى فهم منها حقيقة مشاعر الخوف التي بداخلها . فأخذ يلاطفها ويداعبها ويفهمها أن الزواج بالنسبة للبنت هو السترة حتى لا يحدث منها ما حدث من

أمها . . وأن أمها إنما فعلت ما فعلت لأنها كانت بدون زوج فقدت أبيهما وهى مازالت امرأة صغيرة في حاجة إلى الرجولة وإلى من يسترها .

وبعد أيام قليلة من محاولاته معها . . وافقته . إلا أن الخوف من الرجل . . أي رجل . . مازال مترسبا في داخلها .. لم يزايلها . . إلا بعد ما عاشرت زوجها ووجدت منه حسن المعاشرة والطيبة . . فسارت حياتها بعد ذلك طبيعية واطمأن أخوها عليها .

الابــن

لم يكن الأمر سهلا ولا هينا على حجازي . . أن يتناول العصا التي احتفظ بها خلف الباب لتكون سلاحه في وجه أي معتد على حرمة داره وينهال بها على أمه بكل هذه القسوة حتى تتوقف عن الحركة تماما . ذلك ما لم يكن قد فكر فيه أو رتبه . ربما نتيجة ما اختزنه بداخله . أو تصرف عصبي وليد اللحظة . حقا منذ اللحظة التي أدرك فيها ما تفعله أمه . . يوم أن اجتمعت عليها المرأتان وضربتاها أمام أهل الحارة . . . ومزقتا ثيابها . وعرياها أمام الرايح والجاى . وهو مليء بالغل منها . . يكرهها . . ربما لا يكرهها كأم . . بل يكره تصرفاتها .

فهل يوجد الابن الذي يكره أمه ؟! بداخله شيء انكسر . . تهشم تماما . . وتناثر حطامه بداخله فأدخل المرارة والألم في كل أعضاء جسمه. وتولدت لديه قناعة بأنه لاشيء أسوأ من ذلك بالنسبة له . فتساوى عنده كل شيء . . وكل فعل . . الخطأ مثل الصواب . . والحرام مثل الحلال . فصار عنيفا مع أقرانه . . شرسا في طباعه . . .

جريئا في أفعاله . حتى أصبحوا جميعا يخشونه ويحاولون التودد إليه تجنبا لشراسته وكلما كبر . كبرت معه الأحاسيس التي بداخله . . وازدادت قوته وشراسته . فلم يعد يقف أمامه شيء . . إذا أراد شيئا . . فهو له. وعرف في القرية كلها بذلك . وتعرف خلال تلك الفترة بامرأة شابة تكبره سنا تسكن في داير الناحية . مات عنها زوجها وترك لها قطعتي أرض من أراضي الإصلاح الزراعي وداراً من ثلاث غرف ورأسين مواشي .. أخذ يتردد عليها . قبلته في البداية خوفا منه . . وحصنا تحتمي به من الآخرين . . . إلا أنها بعد ذلك أحبته بل وتمنته لنفسها لم يكن يريد منها إلا ما فقده من أمه . . حنان . . عطف . . أمومة . يتحدث معها وتحادثه . . يشكو لها وتشكو له . في البداية كان كلما ذهب إليها . لا يذهب خاوي اليدين . لم يكن يشغل باله بالتفكير في أي شيء.. إذا وجد أمامه دجاجة.. أمسكها وأخذها معه . إذا مر على أحد من بائعي الفاكهة أو الخضر طلب ما يريده وأخذه دون نقاش ومضى. إلا أنها بعد مدة بسيطة أقنعته أنها لا تريد منه ان يفعل ذلك وأنها لا تريد منه إلا أن يأتيها بشخصه فقط . وان يكون راعيا . . لها ولأرضها وبيتها . . . وحامياً لها من أطماع الرجال الذين ينظرون إلى أرضها وبيتها . . قبل أن ينظروا إليها كإنسانة تريد أن تعيش عيشة كريمة . فهمها . . واستجابت نفسه لما تريده منه . . فأطاعها .

كان ذلك أثناء حياة أمه . . وعرفت به إلا أنها لم تجرؤ على الحديث معه في هذا الأمر . كما أنها كانت تعرف كل شيء عن أمه فلا شيء يظل مجهولا في القرية . إلا أنها لم تحدثه عن أمه أبدا ولم يحدثها هو أيضا عنها .

وعندما كف يده . . عن اخذ ما يريده . ظلت خشية الناس منه كما هى إضافة إلى إمتنانهم لذلك . فطالما كفى الناس شره . . فله الشكر على ذلك . وأخذ يركز كل اهتمامه على أرضها ومراعاة كل شئونها حيث قاطعها أهلها بعد ما عرفوا بأمرهما معا . وعندما وجد نفسه مدفوعا إليها دفعا . . وأصبحت هى كل اهتمامه . . نبتت في رأسه فكرة الزواج منها . المدهش في الأمر انه لم تراوده معها في أي وقت رغبة جنسية تجاهها أو حتى تجاه أي امرأة أخرى . . طوال هذه المدة التى تردد عليها فيها . لم يفكر ولو مرة واحدة أن يمارس عليها رجولته . ولم تطلب هي منه ذلك ولو تلميحا .. تركته على سجيته تماما . وهذا ما كان يجعله يشتاق إليها ويهفو إليها أكثر من أي إنسان . فقط عندما تقدم لأخته من يطلب يدها . . نبتت في رأسه الفكرة . لم لا يتزوجها . ووجد نفسه يسألها مرة . . هذا السؤال:

- إلا إحنا ممكن نتجوز ؟!

- ومش ممكن ليه .

هكذا أجابته بعد لحظات صمت .

وجد نفسه . . يردد . . ما رددته .

صحيح . . مش ممكن ليه . . طب عن إذنك لحظات وخرج وهو يحدث نفسه بصوت عال مرددا عليها السؤال ومجاوبا عنه في نفس الوقت .

وعاد ومعه المأذون وشاهدان .

أنا .. كان .. مالي

اعتلى ((سلامة الجمال)) سنام جمله البارك .. دغدغ عنقه بعصاه الخيزران الذي يحرص على وجودها بيده دائما. حتى ولو لم يكن راكبا جمله . نهض الجمل واقفا يتأرجح وسلامه للأمام وللخلف حتى تم له الوقوف .. اعتدل في جلسته .. مد عصاه يداعب بها عنق الجمل وموجها إياه إلى طريق الحقل .

لم يكن يشغل باله ساعتها إلا أن يعود بحمل (الدريس) على صلاة الظهر .. قبل أن تقدح الشمس ويشتد لهيبها . ويرقد كخلق الله مقيلا ساعة الظهيرة .

ألقي السلام على كل من قابله .. رجلا كان أو امرأة. حتى إذا خرج من حارتهم إلى الطريق الرئيسي بالقرية .. تناهى إلى سمعه صوت مشاجرة بين امرأتين .. رنا بناظريه ناحية مصدر الصوت . فشاهداهما تتشاجران وقد تماسكتا بالأيدي .. وتتشاتمان . عند صنبور الماء (مكان وضع به صنبوران لماء الشرب) وقد وقفت بقية النسوة التي حضرن لملىء جرارهم بعيدات لا يتدخلن بين المتشاجرتين .

حتى إذا وصل إلى موقع المشاجرة.. سأل إحدى النسوة الواقفات .

- مين دول يابت ؟! . ومالكم واقفين وسايبنهم

يتخانقوا ؟!

- سيدة وبنتها .. يا خويا . واحنا مالنا .

- سيدة وبنتها .

قالها في استنكار .. وأسرع بالهبوط عن ظهر الجمل وهو واقف . وأسرع نحوهما بعصاه .. الطويلة يلهب بها ظهريهما .. مركزا أكثر على الابنة .

- اوعى يا بت .. سيبي أمك .

التحمت .. المرأتان أكثر .. فاختلط الأمر عليه وخاصة أن حركتهما كانت بشكل دائري . فكانت تنزل عصاه كيفما اتفق عليهما.

زاد حنقه عليهما .. وازدادت ضرباته قوة . فجأة .. توقفت المرأتان .. وتركت كل منهما صاحبتها .. وفى لحظة واحدة هجمتا عليه كل من ناحية .. وصراخهما يزداد .. وسبابهما يعلو .

من ذهوله .. توقف عن الضرب .. ويده مازالت مرفوعة بعصاه .

أمسكت الأم بخناقه .. وابنتها من خلفه تنهال عليه بيدها .

شلت يداه .. أيتشاجر مع النساء ؟! انه كان يفصل مابينهما وهما تتشاجرن أما أن يصل الأمر للمشاجرة معهما فلن يصل الأمر إلى هذا الحد ،إن ذلك مستحيل .

وقف مذهولا .. والضرب ينهال عليه من كل ناحية . أفاق لنفسه بعد لحظات .. صرخ فيهما .

- بتضربونى ليه . هو أنا عملت حاجة .
- قطيعة تقطعك حتت . أمال أنت كنت بتعمل إيه .
- أنا باحوش بينكم .
- حد قالك اتدخل . . . أنا وبنتي بنتخانق إنت مالك ياحشرى .

عند ذلك كانتا قد توقفتا عن الضرب . وتركتاه بعد أن مزقتا جلبابه .

على الطريق

اعتلت الشمس كبد السماء .. أخذت حرارة أشعتها تزداد لهيبا . دون أن تسمح بنسمة هواء ... تخفف من لظاها . موقف السيارات الخاص بالقرى التابعة للمركز عامر بالحركة بين سيارات قادمة وأخرى ذاهبة . وضجيج القادمين والذاهبين والباعة الجائلين وكل سائق بجوار سيارته التي عليها الدور في الحركة ينادى ركابها .

ومن بينهم وقف ((محفوظ)) ينظم الركاب داخل السيارة مكدسا إياهم حتى يمكنه تحميل أكثر عدد منهم . دون اعتبار لأي شيء آخر حتى إذا فرغ من مهمته .. أغلق عليهم أبواب السيارة حتى يكون مطمئنا لعدم فتحها أثناء السير . ركب مكانه وأغلق بابه .. أدار سيارته ... وتحرك يتهادى حتى إذا خرج من المدينة .. سلك طريقا ضيقا .. مرتفعا عن مستوى الأرض .. يمينه ترعة كبيرة . ويساره ارض زراعية منخفضة عن مستوى الطريق بما لا يقل عن خمسة أو ستة أمتار . نتيجة لتجريف الأرض . طلب من ركابه بصوت عال:

- الفاتحة للنبي يا جماعة .

أخذ الركاب في تلاوتها .. وهو معهم ..

اعتدل في مقعده .. واسند ظهره إلى ظهر المقعد . وفرد طوله .. وركز ناظريه على الطريق .. التي بدت أمامه ضيقة .. ملتوية كالثعبان ومع ذلك في اتجاهين . زاد من

سرعته قليلا حتى يمكنه العودة . أسرع ليلحق وقت خروج الموظفين من أعمالهم ممنيا النفس بإيراد طيب . فاليوم يوم سوق المدينة الرئيسي والحركة من الفجر على خير ما يرام وعندما بدأت تخف . . لقرب انفضاض السوق . . اقترب موعد انصراف العمال من أعمالهم . أحس واحد من الركاب برغبة في التبول . ولإحساسه بكثرة الركاب في السيارة وجد حرجا شديدا أن يطلب من السائق التوقف . فأقنع نفسه بالصبر حتى يصلوا وخاصة أن السيارة قطعت ما يقرب من نصف الطريق . وهى تتهادى بطيئة . . من قدمها وكثرة ركابها .

وفى نفس الوقت تزداد الحاجة إلى التبول عند الرجل حتى لم يعد قادرا على التحمل . صرخ فجأة في السائق .

- يستر عرضك . . وقف دقيقة واحدة . أتبول فيها . . أنا راجل مريض وما عنتش قادر أتحمل .

- يا عم ده وقته .

قال راكب .

- يا أسطي . . مفيش فيها حاجة . . الراجل مريض .

وصمت باقى الركاب . فأحس السائق . . بحرج .

- طب ياسيدى . . . مانقفش ليه . بس وحياتك بسرعة ماتعطلناش

وأخذ الركاب يهبطون من السيارة لإفساح المجال للنزول . حتى إذا وجد نفسه على الأرض اخذ يعدو حتى بعد قليلا . وقف ورفع ثوبه وأخذ في التبول .

إلا انه سمع بعد قليل صوت نفير السيارة يزعق فاعتقد

أن السائق يتعجله فهتف به .

- خلاص .. أنا جاى اهوه ... الصبر يا رجل .

حتى إذا فرغ من قضاء حاجته اخذ يعدو الى السيارة .

والنفير يزعق . وعندما وصل وجد السائق ورأسه مسندة على مقود السيارة والنفير يزعق . مد يده دافعا السائق برفق من كتفه قائلا .

- خلاص .. أنا جيت .

وأخذ يركب ومعه باقي الركاب .

إلا أن رأس السائق ظل كما هو .. والنفير على ما هو عليه .

فدفعه الراكب الذي بجواره إلا أن دفعته كانت قوية بعض الشيء ... فتحركت رأس السائق .. ومال بجزعه على باب السيارة ..

صرخ واحد من الركاب .

- السائق مات يا رجالة .

الرحلة الأخيرة

استيقظ الحاج عبد الجواد .. مبكراً .. كما اعتاد منذ الصبا أيام كان المرحوم والده يصر على إيقاظ البيت بكامله صغيرا وكبيراً قبل آذان الفجر .. صيفا وشتاءاً . ليتأهب الكل ويتوضأ .. ثم يذهبون فراداً أو جماعة إلى المسجد القريب من الدار .. وبعد أن يعودوا من الصلاة يكون طعام الإفطار قد أعد فى انتظارهم .. وأثناء فطورهم يلقى على مسمع كل منهم ما يجب القيام به من عمل خلال يومه .

حقا لم يكن عددهم يتجاوز الأربعة رجال وابنتين . لكن والحمد لله فيهم البركة .. كما أن الأرض لم تكن كبيرة بالكاد الثلاث قطع التي خصصت لهم من الإصلاح الزراعي كل منها ثلثا فدان .. إلا أنهم يزرعونها بأيدهم وإن احتاجوا إلى أيد معهم فيكون ذلك بالمزاملة (أي يذهبون يوما مع أي من الجيران أو الأقارب على أن يحضر معهم نفس العدد عند الحاجة ولنفس المدة) .

ونظراً لأن الوالد كان يعتقد أن التليفزيون والسهر وما إلى ذلك من مفاسد الدنيا فقد اعتاد وعود أولاده على النوم من بعد صلاة العشاء وحتى موعد ايقاظهم . ولم يدخل هذا الجهاز دارهم حتى الآن . ولأن الحاج عبد الجواد مازال يسير على نهج أبيه . لكونه هو الذى بقى فى الدار . حيث أن كل أخ من أخواته بعد موت أبيهم كان يرى أن يستقل بدار له . بحجة أن الحريم فى تجمعهن مشاكل كثيرة

وبدلاً أن يحدث بين الأشقاء ما يفسد الود . كان الاستقلال كل بداره .. حقا .. وجد كل منهم متاعب كثيرة نتيجة لذلك .. فالموارد قليلة .. والأرض محدودة .. إلا أن رد عبد الجواد لأي منهم عندما يحضر إليه شاكيا ..

- يا أخي .. هذه كانت إرادتك أنت وزوجتك . فعليك أن تتحمل نتيجة اختيارك .

واستقل عبد الجواد بالدار .. حيث اختارت والدته البقاء معه وكذلك نصيبها في الأرض والدار ونصيبي البنتين أيضا .

حيث رأيتا فيه رائحة أبيهم كما قالتا وحنانه . وطيبة زوجته عن زوجات أخويه .

وكان لزاماً على عبد الجواد أن يقوم بود أختيه فى المواسم والأعياد .. رداً للجميل ووفاء بعهد أبيه معهما حيث كان يصطحبه بوصفه الأكبر فى ذهابه إليهما فى كل موسم وعيد حاملين معهما ما تيسر من رزق الله . لم يكن الوالد يستنكف أن يحمل معه كيلة أرز أو شوية عيش إذا تعسر الحال وإنما كان أكثر همة في الذهاب حينئذ قائلا :

- ود البنات رحمة في الدنيا وفى الآخرة . ولو حتى تسلم عليهم وترجع . كمان ترفع رأسهن أمام أزواجهن .

وعلى ذلك اعتاد عبد الجواد . بعد والده .

تناول فطوره .. بعد أن عاد من صلاة الفجر وشرب كوب الشاي من غير سكر كماأوصاه الطبيب بعد اصابته بمرض السكر . وقبل يد والدته وحمل ما تيسر

حمله .. ناويا زيارة أخته بمناسبة النصف من شعبان .. التي تعيش في إحدي القرى التابعة لمركز آخر . بعد أن زار أخته الثانية التي تسكن معه في نفس القرية ليلة الأمس بصحبة والدته وزوجته . ونظراً لكبر سن والدته وبعد قرية أخته الثانية يفضل السفر إليها وحده وخاصة بعد اعتلال صحة والدته وعدم قدرتها على السفر حيث اعتادت قبل موت الوالد . ولأن أخته سعاد قريبة من قلبه أكثر .. ربما لأنها البعيدة . كان سفره إليها يسعده أكثر .

انحشر مع غيره في سيارة قديمة من السيارات التي تنقل الركاب إلى المركز .. حتى إذا وصل إلى الموقف حمل (القفة) على كتفه .. ووضعها على شبكة السيارة الأخرى.. التي ستنقله إلى قرية أخته واندس داخلها بين الركاب . حتى إذا امتلأت عن آخرها .. أخذت في التحرك وتهادت على الطريق .. وهي تنوء بحملها .. شاقة طريقها غير الممهد بين الحقول كأنها سلحفاة تتحرك . وكلما مرت بإحدى العزب أو أحد الكفور .. هبط منها فرد أو فردان .. وربما صعد مكانهما ركاب آخرين .. أو يفسح الركاب مكاناً للصاعد . حتى إذا وصل عبد الجواد إلى نهاية رحلته رفع حمولته على كتفه وشق طريقه إلى بيت أخته التي قابلته بالأحضان . والتفت حوله هي وأولادها الستة مهنئين بسلامة الوصول . ولما لاحظت عليه الإجهاد .. طلبت منه أن يستلقى طلباً للراحة بعض الوقت حتى يعود زوجها من الحقل وتكون قد انتهت من إعداد الطعام للغداء .

انتهت من إعداد الطعام قبل عودة زوجها من الحقل . حيث كانت قد نهضت مبكرة كعادتها واعدت من أجل أخيها ما تعرف أنه يشتهيه من ألوان الطعام حتى إذا انتهت

وصل زوجها فطلبت من الاغتسال وصلاة الظهر حتى يستيقظ أخوها . ولما طال نومه أراد زوجها أن يدخل عليه الحجرة . طلبت منه أن يتركه قليلا حيث أنها لاحظت أنه متعب . كما أنها تعرف أنه لا يطيل النوم ظهراً .

وبمضى الوقت دون استيقاظه .. خشيت أن يبرد الطعام ويفقد لذته وطعامته . فطلبت من ابنها الصغير .. الذى اسمته على اسم خاله والذى كان أثيراً لديه .. ويدلله أكثر من غيره .. أن يتولى مهمة ايقاظه .. ونهضت لتعد الطعام . بهدوء دخل الولد على خاله .. الذى كان ممدداً على الفراش ويداه على صدره .. ضغط عليه مداعبا إياه . فلم يجد صدى لمداعبته . ألقى بنفسه على وجهه ناشداً تقبيله . فتم ما أراد دون استيقاظ الرجل أو حتى يبدي حراكا . أمسك بوجهه بين يديه .

- قوم .. قوم .. الغدا جاهز

فلم يبد من الرجل حراك .

خرج الطفل إلى أبيه زاعقا ..

خالى مش عايز يقوم ..

ثم جرى إلى أمه قائلا لها نفس العبارة .

هب والده من مجلسه منزعجاً .. وجاءت زوجته من الداخل مهرولة . وتسابق من يدخل منهما أولا . حتى إذا وقفا أمام الفراش ولاحظا تمديدة الرجل على الفراش .. خطر على بالها فى الحال منظر والدها عندما دخلت عليه وهو ميت .

فصرخت باكية وهي تنهار فوق جسده .

آه .. ياولدي

أغلقت باب حجرتها .. بل بيتها .. إذ لم يكن البيت يتكون من سواها . خففت من ضوء الزبالة التى تضئ الحجرة إلى أقصى مدي ممكن . تهالكت على الفراش الذى كان حتى الأمس فقط فراشهما معا . أريكتان متجاورتان وعليهما مرتبة خفيفة . وضعت رأسها على أول الوسادة وطوت بقيتها فوقها .

لا تريد أن تسمع الأصوات التى تتواتر إلى مسامعها من مكبرات الصوت معبرة عن الفرح والسرور بليلة العرس . التى لم تكن فى يوم من الأيام تتمني حدوثها . وإن كان فى يقينها أنها لابد حادثة ذات يوم .

إلا أنها كانت تتمني أن يكون هذا اليوم بعد موتها . وإن كان المنطق والعقل أن تتمناها له كأم . وأن يكون فى حياتها .. بل وتبتهج كأم العروس وأكثر . وتدق الطبول .. ولا مانع من أن تبالغ فى إظهار فرحتها أمام الناس وتحزم وسطها بأي وشاح وتتمايل فرحاً بقدر استطاعتها كعجوز مثيرة حولها جو من الانشراح والسرور . أليست هذه الليلة .. ليلة عرس ابنها . وحيدها .. الذى احتوته بداخلها صغيراً وكبيراً . غمرته بكل حبها وحنانها ورعايتها طفلا .. واحتضنته كبيراً بحيث لم يكن يواتيها النوم إلا وهو بين

ذراعيها . اكتفت به . أغناها عن كل رجال الدنيا . كانت تحتضنه .. تشعر بانتشاء وسعادة .. تغنيها عن كل الرجال . فلم تفكر فى يوم بعد موت زوجها وهو ابن عشر سنين متأثراً بمبيد حشرى لدودة القطن بعد أن رش به أرض العمدة .. لم تفكر فى الزواج . حقا لم يتقدم لها أحد ورفضته . ولكنها كانت بينها وبين نفسها قد قررت أن تعيش له وله وحده . لم يغب عن عينيها يوما .. ولم يأكل أو يشرب إلا من يدها . كانت تعمل فى الحقول وتتركه هو يرتاح فى الدار .. تشقى هي .. ويخلد هو للراحة .. ويوم تتركه للعب مع إقرانه .. لا يبعد عن ناظريها .. حتى بعد أن كبر وبدأت ملامح الشباب تشكل ملامحه .. استمر حدبها عليه كما هو .. حقا بدأ يبدي بعض التبرم حينا بعد حين . ويتمرد على البقاء فى الحجرة طوال اليوم .. وأقرانه منهم من يعمل فى الحقول .. ومنهم من يحترف حرفة يأكل من ورائها عيشه .

فأراد أن يكون كواحد منهم .. يمتهن مهنة .. حرفة .. وخاصة أن أمه لن تعيش له طويلا .

أصرت في البداية أن يحترف أي عمل يمارسه أمام الدار. فتمرد على ذلك وأصر على أن يعمل مساعداً لسائق الجرار الزراعي لدي أحد أثرياء القرية . الذي كانت داره بالقرب منهم .. وكان له ما أراد . وبرع فى ذلك حتى اشترى الرجل جراراً آخر ليكون هو سائقه وبمفرده .. فبدأ يبعد عنها .. عندما يذهب إلى حرث الحقول أو رى الأراضي .. فلم يكن يهنأ لها بال إلا بعد عودته .. وإن بات فى الحقل .. تذهب إليه .. تسهر معه طوال الليل .. حتى تبرم منها وأقسم عليها إن فعلت ذلك ثانية .. أن يتركها ويترك البلد كلها ويرحل دون

رجعة .

فخافت أن يفعلها . فلم يكن يأتيها النوم .. وتجلس طوال الليل أمام باب الدار فاتحة بابها فى انتظاره . وبمجرد حضوره تسارع بهمة ونشاط بتحضير الطعام التى لم تتذوقه .. والمعد سلفا .. ويأكلان معا .. وتنام معه كما لو كانت طوال الليل معه بالحقل .. أحياناً كانت تقول لنفسها .. وهي ساهرة فى انتظاره :

" الواد كبر .. بقى راجل .. ولا داعي لكل هذا الخوف عليه "

إلا أنها كانت تثور على نفسها .

" طب وانا أعمل إيه .. قلبى لا يطاوعني .. ده هو اللى طلعت به من الدنيا " .

لم يخطر على بالها أبداً .. أن يأتي يوم ويقول لها .

" أنا عايز أتجوز "

أو

" شوفى لى عروسه "

بالرغم من أنه كبر أمام عينيها وأصبح شابا يافعا .. مؤهلاً لذلك .

أيتزوج وينام فى أحضان امرأة سواي .. أناأمه ويوم أن فاتحها فى رغبته بالزواج من إحدي بنات القرية راقت له .. جن جنونها .. طار عقلها .. تمنت أن تميد الأرض من تحت قدميها .. تبتلعها .. لم تنم طوال الليل .. أخذت فى البداية قوله على أنه مداعبة منه أو أي شئ آخر إلا أن يكون جاداً

فى حديثه .

- ها تلاقى زي أمك .. يا عين أمك

- لا .. مش هالاقى .. بس أنا عايز أتجوز بواحده تكون قريبه منك .. ولو شويه .

- هو أنت ناقصك إيه .. كل حاجة أنا بعملها لك ..

أكلك .. شربك ..

- أكل إيه .. وشرب إيه .. يا أمه أنت ناسيه أهم حاجه .. أنا عايز واحده أتجوزها .. أعاشرها زي كل الرجاله اللى بتتجوز وتخلف عيال .

أدركت بحسها الأنثوى ما يعنيه .. لكن الأنثى فيها كانت قد ماتت من سنين .. فكيف تفكر بفكرها وتعقل الأمور بعقلها .

- ماشى .

- يعني إيه ماشى .. مالك بتقوليها كده من غير نفس.. ألا تريدين لى الزواج كباقى الشباب .

- ازاي ده أنت عندي بكل شباب البلد .

- أمال إيه يا أمه ؟!!

سكتت .. فلم تجد ما تقوله .

حرائق الدنيا .. اشتعلت فى صدرها ليلتها .. كل شياطين الأرض اجتمعت وتراقصت حول رأسها . أينام فى أحضان امرأة أخرى سواى ؟! ايأكل من يد امرأة عداى ؟!! هل تفقد سعادتها ووجدها وهي تعد له طعامه وشرابه .. وهي تغسل له ملابسه .. وتحرص كل الحرص على أن

تكون أنظف من الصيني بعد غسيله ؟! كيف يتأتي لها أن تستعيض عن هذه المشاعر والأحاسيس لو تركته يتزوج ؟! والمصيبة الكبرى أنها تصورت ومعها كل الحق طبعاً .. أن العروسة إن شاء الله سوف تطلب بيتاً مستقلاً تعيش فيه مع عريسها .إمال يعني ها تيجي تعيش معايا فى الحجره دي .. يا لمصائب الدنيا التى وضعت كلها على رأسها تلك الليلة .

عند هذا الحد .. قررت بينها وبين نفسها أن تجاريه .. ومن ورائه تسعي لتخريب كل طريق إلى الزواج .

ذهبت معه إلى أهل العروسة .. جلست مع أمها . واتفق هو مع والدها .. اتفاق رجال أمامها .. وهي صامتة كأنها تشاهد تمثيلية تليفزيونية . وعندما عادا إلى دارهما هاجت على أبنها وماجت .. مفتعلة الغضب من مقابلة أهل العروسة.

- هما كانوا قاعدين كده ليه .. ماحدش مالى عنيهم.

هي يعني ست الحسن والجمال .. وأبوها كمان كان نافش ريشه وبيتشرط عليك كده ليه ؟! هي البلد مافيش فيها غيرها .. هو احنا حيلتنا إيه علشان يطلب كل اللى طلبه ده .

جن ابنها وخاصة أنه كان متصوراً أنها كانت راضية وأنها لم تفتح فمها طوال الجلسة . كما أن الرجل لم يغال فى طلباته كما ادعت بل كان معقولاً جداً . فهاج بها .

- إيه اللى جرى يا أمه .. ما انت كنت قاعده .. ماقلتيش ليه اللى انت عايزاه . الراجل قال لك اللى تؤمرى بيه قلت له البركه فيك وفى أم العروسة . إيه اللى مزعلك الوقت يا أمه ؟!

أخرستها ثورته .. فلاذت بالصمت .

وعندما رقداً ليناما .. أعطاها ظهره غاضبا .. فلم تطق بعده وتصبر على غضبه .. احتضنته وداعبته قائلة ..

- يا ابني هو أنا أكره . ده اليوم اللى أنا مستنياه طول عمرى . بس لازم نحس إن أهل العروسة فرحانين .. مش مستقلين بينا .. وبصراحه كده .. أنا مش عارفه اشمعني دي اللى أهلها طالعين بيها السما . طب بكره أنا هاشوف لك ست ستها .

- بس أنا باحبها يا أمه .

صمت قليلا .. كأنما يراود نفسه .. ثم قال .

- لكن عشان خاطرك يا أمه .. أنا موافق بس بسرعة.. علشان لو ملقتيش اللى على هواك .. نكون ما تأخرناش فى الرد عليهم .

- كلها أسبوع واحد .

وسرعان ما مر الأسبوع .. دون أن يرى سعيا جاداً من أمه.. أو حتى تفاتحه فى الموضوع .. كأنها نسيت كل شئ.. وعندما انتهى الأسبوع الثاني .. فاتحها .

- مر أسبوعان يا أمه .

- لسه بدور لك يا عنين أمك .

- لا عنين ولا ثلاثه يا أمه .. ايه رأيك مش عايز غيرها .

ركب رأسه وأقسم إن لم يتزوجها فلن يتزوج سواها .

فدعت الله بينها وبين نفسها ألا يتزوجها ولا غيرها .

إلا أنها بعد عدة أيام . وبعد صلاة العشاء وجدته يرتدي

جلباب المناسبات ويخرج دون أن يتحدث معها . وعندما سألته عن وجهته.. نظر إليها صامتا . ومضى دون أن يقول شيئا .

فأدركت أنه ذاهب إلى أهل العروسة بدونها .. وفعلا وصلتها الأخبار من جيران العروسة بما يؤكد صحة ما وصلت إليه . فقد أدخل أهل العروس فى يقينه أن أمه لا ترغب فى نسبهم وتأكد له ذلك من سلوكها معه . وعليه فإنهم يرحبون به وحده . وهكذا جرى الأمر .

وعندما طلب منها حضور كتب الكتاب .. أقسمت بالله أنها لن تحضر كتب كتاب تم بغير رضاها .

وقاطعت أهل العروس .. وبدأت كلما وجدته أمامها تزعم أن بها مرضا ما .. أو أن أهل العروسة قالوا فى حقها كلاماً ما وصلها .. أو شيئا من هذا القبيل . إلا أنه ركب رأسه وأتم كل شئ حتى ليلة العرس هذه .

أحست بأن الوسادة على رأسها .. تكاد تكتم أنفاسها فرفعتها عن رأسها . تنصتت على الأصوات الصادرة عن مكبرات الصوت الخاصة بالعرس .. حتى إذا أدركت أنه مازال مستمرا . جلست فى فراشها . أحست أن الضوء الصادر عن الزباله قوي .. قامت وأطفأتها . وقبل أن تعود لفراشها راودتها الرغبة فى فتح باب الحجرة التماسا لنسمة هواء تنعشها .. ترد لها روحها الضائعة .

فتحت الباب .. السكون يشمل الكون لا يعكره إلا الأصوات القادمة من بعيد والصادره عن العرس . جلست أمام باب الدار بعض الوقت . النار فى صدرها لم تخمد . أضلاعها تكاد تنطبق على صدرها .. نظرت فى الظلام

بغير هدف ..حتى تناهي إلى مسامعها من الأصوات ما يدل على انتهاء حفل العرس . دخلت حجرتها . أغلقت الباب . تمددت فى الفراش . ثنت ذراعها الأيسر أسفل رأسها. وضعت الوسادة بالطول بجوارها .. احتضنتها . أغمضت عينيها متمنية على الله أن يسعد ابنها . وألا يخرج عليها النهار .

واحد .. ليس بغريب يا أمي

(١)

استجمع "سعيد" كل ما لديه من حواس .. ركزها في أذنيه .. واستنفذ مجامع نفسه متوثباً .. للحظة .. يسمع حفيف نعليها وهي تصعد درجات السلم في خفة .. كالطائر الوثاب فقد مضت عليه ثلاث ساعات منتظراً .. أن تصعد إلى السطح .. ولم يصل إلى أذنيه المتحفزتين أي إشارة تدل على خروجها من باب الشقة .

ألم تشعر بحضورى بعد ؟!

ألم يحدثها قلبها بأنني موجود فى انتظارها ؟!

ما الذى جرى ؟! ليمنعها من الصعود حتى ولو بطعام الدواجن التى تواليها . فى عشة تملأ جزءاً متوسطا من فراغ السطح بجوار الحجرة التى يستأجرها بملحقاتها .

منذ تسلم وظيفته بعد طول اشتياق .. هداه أحد السماسرة إلى هذه الحجرة . فوق سطح عمارة من خمسة أدوار كل دور من شقتين كبيرتين . ونظرا لأن دورة المياه والمطبخ ملحقان بالحجرة ومتصلان من الداخل . فقد رحب بها كثيراً أولاً الإيجار مناسب وفى مقدوره . وثانيا لأنه سيكون فى حالة استقلال تام . وهو ما كان يتمناه . فمنذ

حضر من قريته للمدينة ملتحقا بمدارسها حتى انتهي من دراسته الجامعية وهو يعيش مع زملائه من قريته وكثيراً ما كانت تحدث مشاكل بينهم تؤثر بشكل كبير على ذويهم فى القرية . لهذا كان حريصا على أن يعيش مستقلا فى مسكنه . هذا بالإضافة لكونه محبا للانفراد بنفسه . حيث يحلو له أن يقرأ .. يسمع شيئا من الموسيقى .. وأحيانا يستلقى على الفراش مغمضا عينيه .. تاركاً لخياله العنان فيذهب به كل مذهب . ثم يعود به ثانية إلى أرض الواقع بعد أن يحقق لنفسه شيئا من المتعة الذهنية .. والسعادة المؤقتة .

طال انتظاره .. ولم ترصد أجهزة التنصت لديه أي بادرة لصعودها . لابد ان أمرا ما قد حدث .. أيعقل أن يمضى اليوم بكامله دون أن تطعم الطيور ؟ أم ترى أنها قامت بذلك فى الصباح الباكر قبل حضوره ؟ أيمكن هذا ؟ أنها بذلك تكون متعمدة عدم رؤيتي .. تتهرب مني .. أيمكن أن تفعل ذلك ؟!

بعد حضوره من العمل .. أول يوم لسكناه .. أخذ يمد حبالاً لنشر الغسيل أمام مسكنه .. كان بملابسه الداخلية .. ظانا أنه المسيطر والمالك الوحيد لسطح العمارة .. ليخرجه من أنهماكه صوت نحنحة رقيقة . آفاق إلى نفسه ناظراً لمصدر الصوت .. لتقع عيناه على وجه صبوح .. جميل .. هادئ فى دعة .. مستكين على استحياء فأخذ بجمالها .. وأخذ يرنو إليها متأملاً قوامها الرقيق .. وصدرها الناهد .. ناسيا ملبسه .. حتى انحنت أمامه وفتحت باب العشة ودخلت وأغلقت عليها . ظل مشدوها .. لحظات .. تنبه بعدها لنفسه وعندما أدرك حقيقة مظهره .. دخل حجرته .. وارتدي جلبابه

وعـاد لإكمـال عملـه .. مترصـداً خروجهـا.. الـذي لم يمـض وقـت طويـل عليـه .. حتـى انتهـت مـن عملـها وأغلقـت البـاب خلفها .. وقطعت السطح فى خطوات هادئـة متزنـة نازلـة إلى شقتها .

لم تكن المرة الأولى التى يرى فيها فتاة جميلة بالتأكيد فطـول فـترة أقـامتهم وهـم طلبـة بالمدينـة وهـم محـط أنظـار فتيات كل منطقة يقطنون فيها . وخاصة لو كان لأصحاب البيـت الـذى يـسكنونه فتيـات فـى سـنهم أو أقـل مـنهم . وكـثيرا مـا كانـت تنتهـي دراسـة أحـدهم وهـو مـرتبط بواحدة.

أما مـن بنـات المنطقـة السـكنية .. أو مـن بنـات أصـحاب البيـوت . إلا أن هـذه الفتـاة شـئ آخـر .. ولم يـدرك ذلـك إلا بمـرور الأيـام .. حيـث كانـت تصعد وتهبط دون أن تحـاول جـذب انتباهـه .. أو لفـت نظـره إليهـا .. ومـن جانبـه كـان يترصد وقت صعودها الذى حدده بين الثالثة والرابعة عصرا .. وفهم من ذلك أنه بعد تناولهم وجبة الغداء تصعد بما تبقى من غدائهم للطيور .. وعليه كان خلال هذه الساعة يتعمد الجلوس أمام باب الحجرة .. متصنعاً قراءة الجريدة .. مرة .. نشر الغسيل .. مرة ثانية .. نظافة السطح أمام مسكنه ثالثة وهكـذا .. حتـى تحـضر .. ويـشبع عينيـه بـالنظر إليهـا .. و يمني النفس وهو يتطلع نحوها .. وبعدما مرت أيام .. وحدث شئ من التعود .. عليه بالنسبة لها .. صعدت يوما وهو جالس وقبل دخولها إلى عشة الدواجن صامتة كالعادة .

استوقفها قائلا :

- السـلام علـيكم ورحمـة الله . قالهـا بـصوت يـسمعها

أياه. توقفت .. والتفتت إليه .. وبعد لحظات صمت قالت له .

- السلام عليكم .

- أيوه كده .. لقد أصبح من حقى عليك أن تلقى إلى بالتحية وأن أردها عليك بأحسن منها .. أقصد كجارك .

- صدقت . ودخلت عشتها . وترصدها وهي خارجة .

وعندما وجدته جالسا يرنو إليها .. ارتسم على وجهها شبح ابتسامة . قابلها بابتسامة واسعة . وقالت وهي تسرع الخطو .

- سلام .

- أراك غداً على خير .

وكانت البداية .. سلامات .. كلمات عابرة .. ثم أحاديث خفيفة .. فأخرى طويلة .. حكت له أنها الأبنة الوحيدة لوالديها .. ووالدها بالمعاش حيث كان يعمل موظفا بالشهر العقارى ووالدتها ربة منزل .. وسبق لهاالزواج من أبن خال لها.. إلا أنه كان عاجزاً عن الحياة الزوجية .. وبعد مضى ثلاث سنوات طلبت منه الطلاق بعدما فقدت قدرتها على الاستمرار معه بالرغم من أن ذلك تسبب فى غضب الأهل من ا لجانبين من بعضهما بعضا . ولأنها كانت آثيرة عند والدها فقد أصابته جلطة بعد طلاقها لإحساسه بالذنب لأنه كان السبب وراء هذه الزيجة .. ولم يشف تماما حيث مازال جانبه الأيسر شبه مشلول .. ووالدتها من بدانتها لا تتحرك كثيراً .. وعلى ذلك فهي التى ترعاهما . وكأن العناية الإلهية دبرت طلاقها لأجل أن ترعى والديها . وأنها صرفت النظر تماما عن فكرة الزواج

لأجل ذلك . إلا أنها لا تنكر .. أنها منذ رأته .. تحرك شئ ما بداخلها .. قاومته كثيرا فى البداية .. وحاولت تغيير موعد صعودها إلى السطح ليكون أثناء تواجده فى العمل .. إلا أنها لا تدري لماذا عادت إلى وضعها السابق لعل الله يريد لهما أمرا .. لا تعرف كيف ؟ ولا متى ؟

(٢)

ازداد تعلقا بها .. وحرصا على لقياها والحديث معها .. فطالت وقفاتهما معا على السطح . طلب منها لقياها بالخارج فرفضت بشدة .. طلب منها يوماً ممطرا الدخول معه للحجرة اتقاءً للمطر .. فرمقته بنظرات حادة وغادرته فأسرع ممسكا بيدها ومقسماً أنه لم يكن يقصد شيئا إلا اتقاء المطر . وكبرت لحظتها فى عينيه وقلبه وسلم لها مقاليد أمره وأشفقت عليه من أنه يعود من عمله لا يجد لقمة يقتات بها وإنما عليه أن يعد طعامه وهو متعب . فطلبت منه ترك مفتاح الحجرة فى مكان اتفقا عليه . مشترطة عليه عدم الحضور إلى المنزل فترة الصباح وحتى موعد حضوره . على أن تحضر هي وتنظفها وتعد له الطعام.. على أن يحضر لها الخضر ليلا أو الصباح الباكر ويتركه بالحجرة . حتى إذا عاد من عمله وجد الغداء معدا على المنضدة ومغطي بأوراق الصحف وساخناً كأنما أعدته من لحظات . وطعام العشاء معدا بمكان آخر بالمطبخ . فوجد فى ذلك سعادة ما بعدها سعادة . وأصبحت حياته منظمة وهنية .. واعتاد على ذلك .

وذات يوم أحس وهو فى العمل بوعكة صحية . فأستأذن

وعاد إلى بيته . وعندما صعد إلى السطح وجد فرش حجرته معرضاً للشمس والباب والنوافذ مفتوحة وهي منحنية تمسح الأرضية .. شهقت وأسرعت إلى دورة المياه وأغلقت عليها الباب صارخة من ورائه .

- أهذا ما اتفقنا عليه .

- والله ما كنت أقصد شيئا .. غير أني أحسست بالمرض وأردت أن أرتاح قليلا ..

- خير .. سلامتك ..

- حرارتي مرتفعة وأشعر بدوخة .

- أنتظر قليلا سأرتدي ملابسي وأخرج لك .

وبعد لحظات خرجت عليه بكامل ملابسها .. مدت يدها وتحسست جبينه .. أجلسته على مقعد .. وفى لحظات كانت قد أدخلت الفراش واعدته له وطلبت منه الرقاد بعد أن بدل ثيابه . وأعدت له ليموناً دافئا وأحضرت له دواء من صيدلية قريبة . وتركت له غداءه .. كالمعتاد .. وطلبت منه النوم قليلا .. متمنية له العافية واعدة إياه بالمرور عليه ليلا للاطمئنان .

(٣)

سرى حبها فى عروقه ممزوجاً بدمائه .. أصبحت جزءا منه عضوا مهما من أعضاء جسمه .. إذا نظرت إليه عرفت ماذا به ؟ وماذا يريد أن يقول . وإذا غابت عنه أحس بخواء وفراغ يشمله ويكدر عليه صفو حياته .

حتى أصبح وقت الانصراف من العمل أسعد أوقاته ..

وطريقه للعودة يقطعه مهرولا .. حتى يشعر أنه بجوارها حتى ولو لم يرها فكفاه أحساسه أنها بالقرب منه . يتنفس الهواء الذى تتنفسه .. فماذا يبغي أكثر من ذلك من أي فتاة لتشاركه أحلامه ؟ ماذا ينقصها .. تعليمها المتوسط؟! لا مشكلة فى ذلك ثم أنه لا يريد منها العمل يكفيهما راتبه .. وما يجود عليه الأهل بالقرية . فوالده لديه من الأرض عشرة أفدنة يزرعها وأخواه الأخران اللذان اختارا أن يستمرا على جهلهما ويزرعا الأرض مع الوالد وأختاه اللتان تزوجتا بنفس القرية .. لكن ما أقلق مضجعه هو سابق زواجها . فهل يرضى بذلك أهله . قرر أن يسافر لهم ولن يعود إلا بعد الحصول على موافقتهما بأي شكل . وأرجأ الأمر إلى أجازة عيد الأضحى حيث لم يتبق عنها إلا أسبوع .. وكما اعتاد فلابد من قضاء العيد بين الأهل .

صارحها بما يجول بخاطره .. وبما يخشاه من احتمال اعتراض أهله .. ساعتها .. هربت بعينيها إلى الأرض . . واكتسى وجهها بعلامات الانكسار .

مد يده برفق محتضنا بها أسفل وجهها .. رافعاً راسها .. قائلا :

- لا تخشى شيئا .. لن أعود إلا لك .. وأتمني على الله ألا أرى هذه النظرة في عينيك مرة ثانية حتى ولو آخر يوم في عمري .

- تعود لي بالسلامة .

- إن شاء الله لو اتفقنا سوف أعود ثالث أيام العيد لنقضيه معا فهمت مراده . وتمنت له عيدا سعيداً .. وعودة سريعة .

وجد من والده وأخواته ممانعة شديدة ..ووقفت والدته على الحياد . خشية من انكسار قلب ابنها أما أختاه فقد وقفتا بجانبه بشده فطالما أنها مازالت فتاة .. فما هي المشكلة .. كما أنه لا ذنب لها فى أي شئ .. وطالما قلب أخيهم يريدها فماذا يريدون ؟ فأخذت الأم تميل إلى قول البنات . وظل الوالد والأخوة على موقفهم .وخاصة أن الوالد كانت عينه على أحدى بنات الجيران .. وأهلها أناس ميسورو الحال .

بنت البندر سوف تربطه بها وبالبندر فأراد أن يضع حدا للسجال وحسما للأمر فقا ل :

- يا والدي .. أنا الذى سأتزوج .. ومن حقى اختيار شريكة حياتي .. ثم أني بحكم العمل وباب الرزق مرتبط بالبندر وليس بحكم الزواج فقط كا أننى لست على استعداد للزواج من غيرها مهما كان شأنها .

نزل قوله على قلب والده وأخواته كالصاعقة .. وبردا وسلاما على قلب أمه وأختيه . وساد الصمت بينهم .

لحظات طال أمدها .. فلم يجد بدا من الانصراف من بينهم تاركا لهم حرية الحديث والنقاش فى غيابه لعل أمه وأختيه ينجحان فى التغلب على ممانعة الوالد والأخين .

وفى صباح اليوم التالى كما وعد محبوبته غادر القرية عائدا إلى المدينة بعد اتفاق مع الوالد على أن يترك الأمر بعض الوقت واتفقا بعد إلحاح منه على عشرة أيام ليراود كل منهما نفسه ويراجعها .

طالت جلسته ولم تصعد ؟ ما بالها ؟! ألم تشعر بوجوده بعد أم أنها بالخارج ؟ أنسيت ما تواعدا عليه ؟! أم أصابها مكروه منعها ؟

ساد الشفق الأحمر على زرقة السماء .. وأخذت الشمس تتواري خلف ستائر الليل الزاحفة . نسمة رقيقة .. حانية تسود ذلك المساء .. قلق فى مجلسه .. تارة غاديا رائحا .. وأخرى يقترب من نهاية السلم ناظراً لأسفل لعله يراها صاعدة .

وأفكار تتصارع فى رأسه .. تراوده عن أسباب غيبتها غير المتوقعة .. وقلبه يضطرب وتتسارع دقاته ... ما الذى جرى ؟! أتراها توقعت رفض والدي وأرادت أن تريحني من لحظة المواجهة ؟! أهل هذا معقول ؟! ولماذا رغم كل ما بيننا تتوقع أن أتخلى عنها مهما كان الأمر ؟ حتى ولو رفض الأهل ؟ هل أنا قاصرا عن الزواج منها بالرغم منهم ؟ لعلها أرادت الانسحاب من حياتي حتى تجنبني الصدام مع أهلى ؟ ماذا جرى ؟! وماذا أفعل ؟

وقفت لحظات أمام باب الحجرة عاجزاً عن التفكير مشلول الإرادة .

أكاد أجن .. لا أتصور كيف سيمضى بى الليل دون أن أراها ؟ كيف يغمض لي جفن ؟ وأنا ممدد على الفراش الذي هيأته لي ؟ لابد من تصرف ما .. لابد أن أتحرك .. مالي أقف هكذا كالمشلول ؟! أين ذهبت إرادتي ؟ بدون أدني تدبر .. حتى لم يعط لنفسه الفرصة لغلق باب الحجرة .. أو تسوية هندامه أو تمشيط شعر رأسه .. أخذ يهبط درجات السلم مسرعا .. حتى إذا وقف أمام باب شقتها ..

وضـع يـده علـى جـرس البـاب الـذي أخـذ يصلـصل زاعقـا بالداخل . ومن وراء زجاج شراع الباب يري خيالها يقترب .. حتى إذا فتح البـاب .. ألقـى بنفسه بـين ذراعيهـا .وصـوته يتهدج .

- أين أنت ؟! انتظرك من الصباح . أهل هذا معقول ؟!
- خشيت .. أن ..

وضع يده على فمها .. أسكتها.

- أتخشى شيئا وأنا حي على وجه الأرض .

ضمته إلى صدرها أكثر بعد أن أغلقت الباب خلفه .

- أتاها صوت والدتها من الداخل .
- من بالباب ؟
- واحد ليس بغريب يا أمي ؟

المحتـــوى

صدر حديثاً :

رائحة البيوت	رواية	أشرف حسن عبد الرحمن
صالون برلين	رواية	السعيد أحمد نجم
رسالتى إليك	شعر	عباس الشرقاوي
تكات الخريف	قصص	صابرين الصباغ
إيطاليا أو الغرق	رواية	السعيد أحمد نجم
نهاية رحلة الأحلام	قصص	محمد خيرت حماد
ما قالته نظرتها الأولي	شعر	صابر معوض
لن أكون سبية	شعر	راندا الجندى
أين نحن وإلى أين نتجه ؟	مقالات	صبرى قنديل
إلى هذا الحد ..؟! ط٢	قصص	محمد خيرت حماد
أحلام على الطريق ط٢	قصص	محمد خيرت حماد
كبر داء	شعر عامية	د. عصام زكى الغنام
هانت الأفراح	شعر عامية	سلطان البهوتي
لا عليك	شعر فصحى	عبد الناصر الجوهرى
حمام أم الرشراش	قصص	فؤاد حجازي
المهرج لا يستطيع الضحك	شعر	عبد الناصر الجوهري
أنا رغم الجراح عاشق	شعر	سلطان البهوتي
سأغني للفجر القادم	شعر	محمد يوسف بلال
عليه العوض	رواية	السعيد أحمد نجم
لن تهدرين شجونى	شعر	عبد الناصر الجوهرى
جمرات خابية	مذكرات	أحمد ماضى
لست أنا ، لكنه اسمي	رواية	أحمد ماضى
دموع النوارس	رواية	أحمد ماضى
هنا القاهرة	شعر	السعيد قنديل
الممر ط٢	قصص	أحمد ماضى
هويت بحرك	شعر	جابر على شطا
مقدر ومكتوب	قصص	محمد خيرت حماد

تحت الطبع :

الظلام الدافئ	رواية	أحمد ماضى

